الأمير

تأليف :نيكولاى ميكيافيللى

ترجمة وتحقيق : ا/أسامة عبد الرحمن

مقدمة

لم يتوقع مكيافيللي أن كتابه الأمير الذي انتهي من كتابته قبل وفاته بأربعة عشر عاماً سيصبح مرجعاً سياسياً مهماً للكثير من قادة العالم عقب الثورة الصناعية كما أنه لم يخيل إليه أن يصبح الكتاب ذا أهمية في عالم السياسة فكل ما كان يطمح إليه هو أن يقرأ الأمير هذا الكتاب ويعمل بما جاء فيه ويستطيع توحيد إيطاليا لكن الكتاب أيضاً وفي نفس الوقت يعتبر عاره يلاحق مؤلفه حتى بعد وفاته بعدة قرون.

ورغم محاولات الدفاع العديدة عن الكتاب إلا أنها لم تفقده السمعة السيئة التي حاقت به وبمؤلفه فقد وجد المؤلف ضالته في أمير حديث تولى ولاية موروثة عن آبائه، فكتب له هذا الكتاب ووضع فيه خلاصة فكره وتجاربه السياسية علها تفيد في تحقيق هدفه المنشود وهو توحيد إيطاليا لكن هذا الناصح الأمين لم يخجل من ذكر نصائحه صراحة ودون محاولة تغطية ما فيها من معاني الخسة والانتهازية وعدم احترام حقوق الآخرين.

بل واعتبار أن قتل الأبرياء شيء طبيعي من الممكن فعله من أجل الحفاظ على ملك مغتصب، وذلك عندما نصح الأمير بأن يبيد جميع أفراد الأسرة المالكة فيما يسقط بين يديه من ولايات وإلا أصبحوا خطراً عليه، وضرب على ذلك مثلا بمن قتل كل أعيان وكبار بلده غدراً ومن بينهم خاله الذي احتضنه ورباه بعد وفاة والديه - بعدما عاد إليها حتى يطمئن إلى أنه لن يبقى حوله سوى رجال جيشه المخلصين الولاء له فقط كما أن مكيافيللي ينصح الأمير علانية بأن يجمع كل الصفات الحميدة التي يفتخر بها الرجال ويلتزم بها أمام الناس، بل ويبذل كل ما في وسعه كي يشتهر بها، فيقول الناس عنه : إنه كريم وصادق وشهم وشجاع وحافظ على العهد لكنه يشدد على أهمية أن يستخدم الأمير عكس كل هذه الصفات عند الحاجة إليها دون أي خجل من ذلك فالحكم فقط هو ما يسعى إليه الأمير من شهرة طيبة تتحقق سواء التزم بهذه الصفات أم لا وتيجة لهذه الشهرة في عالم الشر، فإن كل القراء في أوروبا في القرن السادس عشر، والقرن السابع عشر يعرفون كتاب الأمير وصاحبه مكيافيللي

وعلى الرغم من أن فرنسيس بيكون وهو معاصر لشكسبير حاول توضيح أن مكيافيللي يتناول الأشخاص كما هم ، وليس كما يجب أن يكونوا، لكن ذلك لم يجد نفعاً .

أسامة عبد الرحمن

الأنواع المختلفة للحكومات وطرق إقامتها:

كل الدول تمارس السلطة وتسيطر على الشعوب وهي إما جمهوريات أو ممالك والممالك إما أن تكون وراثية وحكامها من أسرة واحدة وتستمر في الحكم لسنوات طويلة أو أنها تكون ممالك حديثة النشأة مثل مملكة ميلان في عهد فرانسيسكو سفورزا أو أن تكون قد انضمت حديثا كأجزاء جديدة ، تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة مثل مملكة نابولي في عهد ملك أسبانيا والممالك التي تكتسب بهذه الطريقة إما أنها كانت في حوزة أمير آخر، أو أنها كانت ممالك حرة تم ضمها بالقوة إلى ملك الأمير نفسه ، أو إلى أمراء آخرين وآلت إليه من بعدهم

الممالك الوراثية:

أول ما نلاحظه هو أن صعوبة الوصول إلى عرش الملك في مملكة وراثية اعتاد أهلها على الأسرة الحاكمة أقل بكثير من صعوبة الوصول إلى العرش في الممالك الجديدة .

حيث لا يكفي تجنب الأوضاع التي كان يتبعها السلف والتحسب لأي طارئ وفي مثل هذه الحالة فإن الأمير وإن كان ذا قدرات عادية فإنه سيستطيع أن يحافظ على عرشه إلا إذا اضطرته قوة غير عادية شديدة إلى التخلي عنه وحتى إذا فقد عرشه، فإنه مع أول خطأ بسيط من المحتل، سيكون قادراً على استعادة العرش .

وفي إيطاليا مثال واضح على ذلك وهو الدوق فيريرا الذي استطاع صد غارات البنادقة عام ١٤٨٤م وكذلك صد البابا جوليوس عام ١٥١٠م لا لشيء سوى قدم أسرته في حكم هذه الدوقية حيث إن الأمير الشرعي المحبوب من شعبة الذي لا توجد له رذائل مفضوحة أمام الناس لا يحب شعبه أن يتخلص منه، ومن الطبيعي لشعبه أن يتمسك به من الطبيعي أيضاً أن يتناسى الأسباب والدواعي البسيطة التي تدعوه لتغيير الحاكم، حيث إنه إذا حدث تغيير مفاجئ ، فإنه سيفسح الطريق أمام تغيير آخر .

الممالك المختلطة:

لا تكمن الصعاب حقاً إلا في الممالك الجديدة فإذا كانت المملكة ليست جديدة بالكامل ، أي أنها مملكة مختلطة بعضها حديث ، والآخر قديم فإن الاضطرابات تحدث فيها بسبب الصعوبات الطبيعية التي تحدث في كل الممالك الجديدة ، لأن الناس يذعنون لسادتهم بإرادتهم على أمل تحسن أحوالهم وهذا الاعتقاد يجعلهم يحملون السلاح ضد حكامهم، وهم في ذلك مخدوعون حيث أثبتت التجارب فيما بعد أنهم يذهبون من سيئ إلى أسوأ وهناك ضرر طبيعي وحتمي ينتج عن هذه الحالة وهو يقع على هؤلاء الذين ساعدوا الأمير في السيطرة على مملكته سواء كانوا جنودة ، أو مساعدين له، بالإضافة إلى الإصابات التي لا حصر لها التي تحدث بسب احتلال جزء جديد .

وهكذا يتحول كل من أصيب في معركة قام بها للسيطرة على الأرض إلى عدو لك، ولن تستطيع الحفاظ على صداقة من ساعدوك على الحصول على هذا الجزء من المملكة

كما لن تستطيع تحقيق ما يتمنونه ولا أن تطبق عليهم قوانين صارمة حيث ستكون معترفا لهم بجميل مساعدتهم لك ولهذا السبب على أي حال، فإنك أيها الأمير ستكون في حاجة دائمة إلى حب الناس حتى تستطيع السيطرة على بلادهم مهما كانت قوة جيوشك وهذه هي الأسباب التي جعلت لويس الثاني عشر ملك فرنسا ، وعلى الرغم من قدرته على احتلال ميلان بلا مشاكل ، إلا أنه سرعان ما فقد السيطرة عليها حيث استطاعت قوات لودوفيكو بمفردها أن تستعيدها منه في المرة الأولى، لأن سكانها الذين فتحوا له بواباتها بإرادتهم اكتشفوا أنهم قد خدعوا بآمال لم تتحقق ولم يحصلوا على أي ميزة كانوا يتوقعونها، فلم يتحملوا استمرار حكم ملكهم الجديد.

ومن المعروف أن الأقاليم التي تتمرد على أمرائها يصعب فقدانها مرة أخرى بعد استعادتها، حيث يصبح الحاكم وبسبب سابق تمردهم- أكثر حرصا على دعم موقفه ومعاقبة المتمردين وكشف المرائين وتقوية نقاط الضعف. لذلك وعلى الرغم من أن مجرد ظهور الدوق لودوفيكو على الحدود كان كافيا لأن تفقد فرنسا سيطرتها على ميلان

في المرة الأولى، إلا أن فقدان السيطرة عليها مرة أخرى لم يكن ممكناً إلا عندما تحالف الجميع ضدها وبعد أن هزمت جيوشها وطردت من إيطاليا وذلك للأسباب السابق ذكرها أي أنها سقطت في المرتين الأولى والثانية وقد أشرنا توا إلى أسباب سقوطها في المرة الأولى والآن يجب أن نعرف أسباب سقوطها في المرة الثانية وكيف كان يمكن لفرنسا أن تتجنب هذا السقوط، وما هي الإجراءات التي كان يجب اتخاذها لو أن هناك حاكماً آخر في مكان ملك فرنسا ليتجنب فقدان السيطرة على جزء من مملكته وأول ما يجب علينا أن نسأل عنه هو ما إذا كانت هذه الأقاليم تتكلم نفس لغة وجنسية الدولة التي تضمها أم لا .فإذا كانت اللغة والجنسية واحدة فإنه من السهل ضم هذه الأقاليم والسيطرة عليها خاصة إذا كانت هذه الأقاليم غير معتادة على التحرر ولكي نملكها بسلام يجب أن تمحى الأسر التي كانت تحكمها من الوجود أما بالنسبة لبقية الشعب فإنهم سيظلون تحت إمرة الأمير الجديد ، طالما أنه لم يحدث ما يغير من ظروف حياتهم السابقة ، أو يغير من عاداتهم

وهذا واضح فيما حدث في كل من بورجوندي ،وبريتاني ،وجاكسوني ونورماندي التي انضمت لفرنسا منذ وقت طويل، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات البسيطة في اللغة، إلا أن عادات الشعوب كانت متشابهة من جهة أخرى مما مكنهم من الاستمرار في الاتحاد ومن يسيطر على أراض ويريد أن يحتفظ بها لابد أن يضع في اعتباره أمرين أولهما القضاء على الأسرة الحاكمة السابقة قضاء مبرماً ، وثانيهما عدم تغيير أي قوانين أو ضرائب خاصة بهذه البلاد وبهذه الطريقة ستصبح جزءاً من الاتحاد في وقت قصير جداً، وتصبح الدولة كياناً واحداً .

ولكن عندما يكون شعب الأراضي المنضمة حديثأ يتحدث لغة مختلفة وقوانينه وعاداته مختلفة ، فإن الصعوبات التي يجب التغلب عليها تصبح أكثر وتتطلب حظ وفيرة وحنكة للتغلب عليها. وإحدى أفضل الطرق وأكثرها تأثيرا هي أن يقيم الحاكم الجديد في تلك الأرض. وهذا سيجعل ملكيته لها أكثر أمنا واستمراراً وهذا هو ما فعله الأتراك في بلاد الإغريق

فعلى الرغم من كل ما فعلوه هناك للسيطرة على الدولة لم يكن من الممكن المحافظة عليها ، لولا أن الحاكم ذهب وعاش هناك فوجوده في موقع الأحداث يمكنه معاصرة الاضطرابات ، وهي لا تزال في المهد ومن ثم معالجتها بسرعة، إما إذا عاش بعيداً عن تلك الأرض فإنه سيعرف بحدوث الاضطرابات فقط عندما تكون قد تفاقمت ، وغير قابلة للعلاج كما أن رجال الأمير الرسميين لن ينهبوا البلاد، وسيسعد الرعايا بقربهم من الحاكم واتصالهم المباشر به وإذا أرادوا أن يكونوا مخلصين له ، فإنهم سيجدون كثيرا من الأسباب ليحبوه أما إذا ظلوا على ولائهم القديم ، أو أنهم ينحازون ضد الحاكم الجديد فإن وجود الأمير الجديد قريباً منهم سيكون سبباً للردع والخوف منه كما أن إقامته ستجعل أي قوى خارجية تهاب محاولة غزو تلك الولاية وكلما طالت مدة إقامته فيها يصعب جداً تجريده منها .

والعلاج الآخر وهو أفضل يتمثل في زرع المستعمرات في عدة أماكن مميزة بالأرض المستعمرة، ومن الضروري أن نفعل ذلك أو أن نحتفظ بعدد كبير من القوات المسلحة

في نفس المكان والمستعمرات ستكلف الأمير أموالاً أقل، فهو يستطيع إرسال المستعمرين للإقامة هناك باستمرار بدون أي تكلفة مادية يدفعها أو بتكلفة قليلة والمضرة ستقع على هؤلاء الذين ستؤخذ بيوتهم أو أراضيهم لمنحها للمقيمين الجدد، وهذا يعتبر نوعاً من الحماية للدولة، أما من تضرروا فإنهم لن يستطيعوا الانتقام من الحاكم إن ظلوا فقراء ومتفرقين أما الباقون الذين لم تصبهم مضرة فمن السهل تهدئتهم، حيث أنهم سيخشون لقاء نفس المصير إن هم اعترضوا فسوف يجردون من ممتلكاتهم أيضاً وخلاصة القول أن المستعمرات لا تتكلف أي مال وستكون أكثر ولاء وأقل اضطراباً، ، أما المتضررون فسيظلون غير قادرين على الإضرار بالحاكم ما داموا متفرقين وفقراء كما أوضحت ويجب أن نلاحظ أن الرجال إما أن يستمالوا أو تتم إبادتهم، كما أنهم يثأرون لأنفسهم في الأمور الصغيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك في الأمور الكبيرة، فإذا ما أضير الرجل مضرة كبرى فلا يجب علينا أن نخشى انتقامه ووجود القوات بدلا من استخدام طريقة المستعمرات سيكلف الحاكم مالاً أكثر

مما سيجعله ينفق كل عائدات هذه المستعمرة في المحافظة عليها، وبذلك يكعون ضمها خسارة مادية، إضافة إلى أن ضرر القوات العسكرية كبير حيث يتأذى كل من يعيش في تلك الأرض من عسكرة الجيش عليها وهذه المضايقة الجماعية للشعب ستجعل من كل واحد منهم عدواً لك، يمكنه أن يفعل ما يضرك فهم باقون فى منازلهم رغم الهزيمة وعلى أي حال ستكون معسكرات الجيش عديمة الفائدة بينما تحقق المستعمرات فوائدها .

كما أن الحاكم الذي يحكم إقليماً أجنبياً كما أوضحت، يجب أن يجعل من نفسه قائداً وحامياً لجيرانه الأقل قوة منه ويسعى جاهداً لإضعاف الأقوياء منهم وأن يحذر أن يغزوهم أجنبي أقوى منه ، فمن لا يرضى بذلك سيدعوه للتدخل إما خوفاً أو طمعاً ، وقد حدث ذلك حينما دعا الإيتوليون الرومان إلى بلاد الإغريق. وأي بلد دخلها الرومان كان بناء على طلب من أهلها وهناك قاعدة تقول : إن أي أجنبي قوي يدخل إلى بلد فإن كل المستضعفين من سكانها سيؤيدون هذا الأجنبي مدفوعين في ذلك بحقدهم على حكامهم ولا يتكبد الأمير أي عناء

في ضمهم إليه لأنهم ينضمون بإرادتهم إلى قواته الغازية ويجب على الأمير فقط أن يحذر من أن ينالوا سلطانة كبيرة أو قوة، حيث يتمكن من سحقهم ، والسيطرة على الإقليم باستخدام قواته والموالين له ومن لا يستطيع تحقيق ذلك سيواجه صعوبات ومشكلات لا حصر لها .

وقد اتبع الرومان دائماً هذه السياسة فيما سيطروا عليه من ولايات فقد أقاموا المستعمرات وأقاموا علاقات حميمة مع الدول الضعيفة المجاورة دون السماح لها بمزيد من القوة، وأضعفوا الدول القوية ولم يسمحوا للحكام الأجانب بالسيطرة عليها وسأضرب هنا مثلاً بولاية الإغريق حيث أقام الرومان صداقة مع الآخيين والأيتوليين، إلا أنهم لم يسمحوا لهم بالتوسع في الإقليم كما أنهم أضعفوا مملكة مقدونيا وطردوا أنتيوكس ولم يفلح صديقهم فيليب في استمالتهم له دون أن يضعفوا نفوذه كما لم تغرهم قوة أنتيوكس بالموافقة له على السيطرة على أي ولاية في المنطقة وفي كل هذه الحالات سلك الرومان مسلك الأمراء الحكماء، الذين لا ينظرون إلى اضطرابات الحاضر فقط، ولكن أيضا إلى ما سيقع منها في المستقبل، ويتأهبون له قبل وقوعه

فما يمكن التنبؤ به يمكن علاجه بسهوله أما إذا انتظرنا إلى أن تداهمنا المخاطر ، فسيصبح العلاج متأخراً عن موعده وتستعصي العلة ويحدث هنا مثلما يحدث في المحميات غير المستقرة فالأطباء يقولون أنها في بدايتها تكون صعبة التشخيص وسهلة العلاج بينما تكون سهلة التشخيص وصعبة العلاج وهي في نهايتها وهذا هو الحال في أمور الدولة فإننا نرى الخطر المتوقع قبل حدوثه وهي صفة الحكماء من الرجال فقط فيسهل علاجه ولكن إذا تركناها تستفحل ويعرفها الجميع فلن يوجد لها أي علاج وهذا كله بسبب قصر النظر ولهذا فإن الرومان كانوا يكتشفون الاضطرابات وهي لا تزال في المهد واستطاعوا دائما أن يعالجوها، ولم يتيحوا لها أي فرصة لتزداد حتى يتجنبوا الحرب، وذلك لأن الحرب إذا بدأت فلا مفر منها ولا يمكن تأجيلها إلى ما هو في صالح الطرف الآخر،لذلك فهم قد أعلنوا الحرب على فيليب وانتيوكس في بلاد الإغريق حتى لا يضطروا إلى محاربتهما في إيطاليا، على الرغم من أنه كان متاحاً أمامهم تجنب كلتا الحربين ولم يستجيبوا لنصائح من طلبوا منهم الانتظار والتريث لأن مرور الوقت قد يحمل معه خيراً أو شراً .

ولكن لنعد لفرنسا لنرى ما إذا كانت قد فعلت مثل ذلك أم لا ولن أتحدث عن الملك شارل ولكن عن الملك لويس حيث إنه يمكن تحليل ما فعله بطريقة أفضل، ولوضوح سياساته وممارساته كما أنه قد حكم إيطاليا لفترة أطول وسترى أيها الأمير أن الملك لويس فعل عكس كل ما يجب فعله للمحافظة على إقليم أجنبي فقد دعا طمع البنادقة الملك لويس إلى دخول إيطاليا حيث طمعوا في أن يكسبوا نصف إقليم لمبارديا من وراء ذلك وأنا لن ألوم الملك على مجيئه إلى إيطاليا لا على الجزء الذي احتله منها، وذلك أنه جاء رغبة في تثبيت أقدامه في إيطاليا ،وليس لمصادقة أهل البلد ولكن على العكس تماماً فقد أوصدت الأبواب في وجه الملك لويس بسبب هذا السلوك فاضطر لقبول أي تحالف يعرض عليه وكان من الممكن لخططه أن تنجح بسرعة شديدة لولا وقوع أخطاء أخرى منه أثناء تنفيذ تلك الخطط .

والملك إذن حين سيطر على لمبارديا قد استعاد فوراً النفوذ الذي كان الملك شارل قد فقده فقد استسلمت له مقاطعة جينوا وأصبح الفلورنسيون أصدقاء له وتقرب إليه مركيز مانتوا وأدواق فرارا وبنتيفولي وأميرة

فوربي وأمراء فانزا وبيزاو وريميني وكاميرينو وبيمبينو وأهل لوكا وبيزا وسينا وقد عرف البنادقة في ذلك الوقت نتيجة طيشهم ، ففي مقابل سيطرتهم على عدد قليل من المدن في لمبارديا تركوا الملك يحكم اكثر من ثلثي إيطاليا .

وتستطيع أيها الأمير أن تدرك أنه كان من السهل على الملك لويس أن يستعيد النفوذ الفرنسي على إيطاليا لو أنه طبق القواعد الأساسية التي سبق أن أشرت إليها وسيطر بحزم على حلفائه الذين كانوا كثيري العدد واضحي الضعف فقد كانت مخاوفهم كبيرة سواء من الكنيسة أو من البنادقة الذين لم يرضوا بالوجود تحت إمرته وسلطانه وقد كان حلفاؤه الضعفاء مضطرين إلى الالتصاق به، وكان بإمكانه ومن خلال مساعدتهم له أن يتغلب على مناوئيه لكن الملك لويس فعل عكس ذلك تماماً، فلم يكد يصل إلى ميلان حتى ساعد البابا الكسندر ليبسط نفوذه على إقليم روما ولم يدرك الملك أنه بذلك قد أضعف نفسه وابتعد عن حلفائه الذين لجئوا إليه ، وطلبوا حمايته، كما أنه ضاعف من نفوذ الكنيسة بإضافة قوته الوقتية إلى قوتها الروحية لكنه لم يرض

بأنه قد ساهم في زيادة قوة الكنيسة وفقد أصدقاءه، كما أنه كان يتمنى في ذلك الوقت أن ينال مملكة نابولي إلا أنه اقتسمها مع ملك أسبانيا، وبينما كان هو الوحيد المتحكم في إيطاليا أصبح الآن له شريكا فتلاشت الآمال المعلقة عليه وأصبح الناس غير مقتنعين به وباحثين عن غيره،وبدلاً من أن يأتي بملك موال له، تخلص منه وأتى بغيره قادر على طرده هو من هناك.

إن الرغبة في تملك الأشياء أمر طبيعي وعادي جداً ومن يستطيع تحقيق ذلك يمدحه الناس ولا يلومونه ، ولكن من يريد التملك ولا يستطيع تحقيقه فإنه يود أن ينجح مهما كلفه الأمر فيقع في أخطاء ينال عنها لوم كثير فإذا كانت فرنسا في ذلك الوقت وبقواتها الخاصة قادرة على السيطرة على نابولي فقد كان يجب عليها أن تفعل ذلك وإذا كانت لا تستطيع فكان يجب عليها ألا تقتسمها فإذا كان هناك عذر لاقتسام لمبارديا مع البنادقة وهو أن ذلك الاقتسام قد سمح لملك فرنسا بايجاد موضع قدم له في إيطاليا، فإن التقسيم الثاني يحسب عليه ، فلا توجد ضرورة لذلك

وبهذا يكون الملك لويس قد ارتكب خمسة أخطاء : سحق القوى الصغيرة، وزاد من نفوذ قيام دولة واحدة في إيطاليا، وجاء بأجنبي قوي جداً إلى داخل البلاد، ولم يذهب ليعيش هناك بنفسه، ولم ينشىء أي مستعمرات. ولو كان الملك لويس قد امتد به العمر ، لما أضير من هذه الأخطاء الخمسة كثيرة إلا أنه ارتكب الخطأ السادس وهو تجريد البنادقة من الولاية وقد كان ذلك ضرورياً فقط لو لم يكن قد دعم قوة الكنيسة ، وأتى بالأسبان إلى إيطاليا وبما أنه قد فعل كل ذلك فكان من الأجدر به ألا يسعى إلى التخلص من البنادقة أبداً لأنهم إذا كانوا أقوياء وبإمكانهم أن يصدوا محاولات غزو لمبارديا، وذلك لأنهم لن يقبلوا بأي شيء يحدث فيها ويخرجهم منها من جهة، ومن جهة أخرى لن يقدم أي طرف آخر لنزعها من فرنسا وإعطائها للبندقية، ولا يوجد من عنده الشجاعة ليهاجم الاثنين معاً .

وإذا كان هناك من يرى أن الملك لويس قد سلم رومانيا إلى ألكسندر ومملكة نابولي إلى الأسبان حتى يتفادى الحرب فإني أرد عليه بما ذكرته من أسباب

بأنه لا يجب علينا أن نترك الاضطرابات تثور في مقابل تجنب الحرب فالحرب لم يتم تجنبها في هذه الحالة ، ولكنها تأجلت فقط والتأجيل لن يضر أي أحد سواك أنت يا من تسعي إليه أما إذا ادعى البعض أن هذا الموقف الذي اتخذه الملك لويس كان بسبب وعد مع البابا بأن يقوم بتلك الحملة الحسابه على أن يطلقه البابا من زوجته ويسند كاردنالية إلى روهان، فإني أرد على ذلك بما سوف أذكره فيما بعد عن وعود الأمراء وكيف ينبغي تناولها وهكذا أضاع الملك لويس لمبارديا لأنه لم يفعل مثلما فعل الآخرون الذين استولوا على أقاليم وأرادوا الاحتفاظ بها وهذا الأمر ليس معجزة لكنه منطقي وطبيعي وقد تحدثت في هذا الموضوع مع الكاردينال روهان في ناتس وقد قال لي الكاردينال : إن الإيطاليين لا يعرفون معنى الحرب وأجبته بأن الفرنسيين لا يعرفون معنى السياسة، لأنهم لو عرفوا معناها لما سمحوا للكنيسة أن تصبح قوية جداً والتجربة تقول : إن فرنسا هي سبب عظمة الكنيسة في إيطاليا وفي أسبانيا وهي أيضا سبب سقوطها ومن هنا يمكننا استنتاج قاعدة عامة لا تخيب إلا فيما ندر

وهي أن كل من يتسبب في أن يقوى غيره يهلك نفسه، لأنه إنما يفعل ذلك إما بالحيلة ، أو بالقوة . وهاتان الصفتان هما موضع شك ممن يصل إلى السلطة .

لماذا لم تتمرد مملكة داريوس على الاسكندر ؟

بالنظر إلى الصعاب التي تكمن في الاستيلاء على دويلات جديدة، قد يتعجب البعض من أن الإسكندر الأكبر وقد أصبح سيد آسيا خلال أعوام قليلة، لكنه لم يكد يحتلها حتى وافته المنية وكان من المتوقع أن تثور جميع الولايات إلا أن الولايات كلها لم تتمرد على خلفائه وعلى أي حال، احتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم ولم يواجهوا أي متاعب فيما بعد سوى تلك المتاعب التي حدثت بين بعضهم البعض بسبب مطامعهم الشخصية وأرد على ذلك بأن تاريخ حكم الممالك سجل طريقتين للحكم: إما أن يكون الحكم متمثلاً في أمير وأتباعه الذين يعملون كوزراء بجانبه ويشاركون في السلطة بدعم وتأييد منه أو يكون الحاكم أمير ومعه عدد من البارونات الذين لا يعتمدون في قوتهم على الأمير

وإنما على أصالة عائلاتهم القديمة ولهؤلاء البارونات دويلات ورعايا خاصين بهم،ويعتبرهم رعاياهم أسياداً لهم ويرتبطون بهم ارتباطاً وثيقاً وفي الدول التي يحكمها الأمير وأتباعه يكون للأمير سلطات أكثر حيث لا يوجد بالدولة من هو أعلى منه مقاماً، والآخرون الذين يأتمرون به هم مجرد وزراء ومسئولين فى دولة الأمير،ولا يوجد من يعطيهم أكثر من حقهم.

وفي عصرنا الحالي يوجد مثالين لهذين النوعين وهما الأتراك وملك فرنسا فالمملكة التركية يحكمها حاكم واحد، والباقون هم خدامه ، وهو قد قسم المملكة إلى سنجقيات يرسل إليها العديد من الإداريين ، ويغيرهم أو يستدعيهم حسب هواه لكن ملك فرنسا محاط بعدد كبير من قدامى النبلاء ومكانتهم معروفة جيداً لرعايا الدولة ، وهم أيضاً محبوبون منهم ولهم امتيازات لا يستطيع الملك أن يحرمهم منها وإلا عرض نفسه للخطر إن من ينظر إلى هاتين الدولتين سيجد أنه من الصعب جداً الاستيلاء على الدولة التركية لكن السيطرة عليها سهلة جداً لأسباب عديدة وذلك في حالة هزيمتها أما مملكة فرنسا فمن السهل جداً إسقاطها لكن السيطرة عليها أمر شديد الصعوبة

إن أسباب صعوبة احتلال المملكة التركية هي أن الغازي لن يجد ترحيب من الأمراء الموجودين بالمملكة، ولا يأمل أن تساعده في حملته حركات تمرد بزعامة هؤلاء الذين كانوا مقربين من الملك للأسباب المذكورة سابقا. فمن الصعب إفساد هؤلاء القوم لأنهم جميعاً عبيد السلطان ، وأتباع له ، وحتى لو تمكنا من إفسادهم، فلن نستفيد من ذلك كثيراً لأنهم لن يستطيعوا ضم الشعب إليهم للأسباب السابق ذكرها لذلك فإنه على من يرغب في الهجوم على سلطان الأتراك أن يواجه قواته المتحدة ، وأن يعتمد على قواته وليس على ما يمكن أن يحدث من تمرد يقوم به آخرون ضد السلطان ولكن بمجرد أن يتمكن من هزيمته في معركة واحدة بحيث لا يمكنه تكوين الجيش مرة أخرى ، فلن يكون هناك أي خطر عليه سوى من العائلة المالكة، فإذا أبيدت هذه الأسرة، فلن يوجد بعد ذلك من نخشاه أما الآخرون الذين كانوا حول الملك قبل النصر، فلا خوف منهم الآن، فإذا كان المنتصر لم يعلق أي أمل عليهم قبل النصر، فلا يجب أن يخشاهم بعد النصروالعكس صحيح في الممالك التي تحكم مثلما تحكم مملكة فرنسا

لأنه يمكن الدخول إليها باستمالة بعض بارونات المملكة، فلابد أن يكون منهم الساخطون ومحبو التغيير وهؤلاء وللأسباب السابقة يمكنهم أن يفسحوا الطريق لك ، ويجعلوا لك النصر سهلاً ميسراً لكن فيما بعد إذا أردت الاحتفاظ بهذا الملك فيما بعد فإن المشكلات التي ليس لها نهاية تبدأ في الظهور وسيكون سبب المشكلات هم هؤلاء الذين ساعدوك والذين تعسفت معهم على حد سواء ويصبح التخلص نهائيا من أسرة الأمير غير كاف، لأن النبلاء سيبقون ويتزعمون الثورات الجديدة ولأنك لن تستطيع إرضاءهم أو القضاء عليهم، وستفقد الولاية عندما تحين أول فرصة لذلك والآن إذا تأملت طبيعة حكومة مملكة داريوس فإنك ستجدها مماثلة للمملكة التركية ، لذلك كان على الإسكندر أن يسقطها بالكامل أولاً ويغزو جميع أراضيها، وبعد النصر وموت داريوس استتبت الأحوال في الولاية للإسكندر وذلك للأسباب التي ناقشناها فيما سبق ولو أن خلفاءه ظلوا متحدين لما ثارت أي مشكلات ولعاشوا فيها في سلام ولكن مشكلاتهم قد حدثت فيما بين بعضهم البعض

فمن المستحيل إذن أن السيطرة على دول متحدة مثل فرنسا بمثل هذه السهولة وهذا هو سر الثورات التي قامت بين وقت وآخر ضد الرومان في أسبانيا وفرنسا واليونان وذلك نظراً لوجود إمارات عديدة في تلك الدول ولم تستتب الأمور الحكم الرومان المزعزع إلا عندما انتهى ذكر هذه الإمارات ومحيت وأصبح الرومان سادة لا بديل لهم. وعندما دب الخلاف بين الرومان كان في مقدور كل واحد منهم أن يعتمد على مساندة منطقته له حيث كون سلطانة لنفسه لكن الرومان لم يتم اعتبارهم حكاماً هناك إلا بعد انقراض الأمراء من الأسر الحاكمة القديمة فإذا نظرنا إلى هذه الأمور فليس لنا أن نعجب للسهولة التي سيطر بها الإسكندر على آسيا ولا للصعوبات التي لاقاها غيره ممن فتحوا أقاليم مثل بايروس وغيره كثير لأن ذلك لا يعتمد على قدرة الفاتح سواء عظمت أم تضاءلت ولكن الأمر يتوقف على ظروف مختلفة.

حكم المدن والممالك التي عاشت قبل احتلالها في ظل قوانينها الخاصةعندما تكون تلك الدول التي تم الاستيلاء عليها معتادة على الحياة الحرة في ظل قوانينها الخاصة، هناك ثلاث طرق للسيطرة عليها

فإما أن يلغيها الأمير أو أن يذهب بنفسه ، ويعيش هناك أو أن يسمح لها بالاستمرار في استخدام القوانين السابقة مع دفع الجزية وتوجد داخل الدولة حكومة مكونة من عدد قليل ممن يحافظون على ولائها لك ولأن هذه الحكومة التي شكلها الأمير تعرف أنها لا يمكن لها أن تستمر بدون رضائه وحمايته، فهي ستفعل كل ما في وسعها للحفاظ على هذا الرضا وهذه الحماية ومن جهة أخرى فإن المدينة التي اعتادت الحياة بحرية يمكن السيطرة عليها من خلال مواطنيها أكثر من أي طريقة أخرى، وذلك إذا أردت أن تستمر هذه السيطرة ومثال ذلك الإسبرطيون والرومان حيث سيطر الاسبرطيون على أثينا وطيبة من خلال حكومة قليلة العدد، إلا أنهم فقدوا السيطرة عليها بينما خرب الرومان كابو وقرطاجنة ونومانطة من أجل السيطرة عليها،لكنهم لم يفقدوها وقد حاولوا السيطرة على اليونان بنفس الطريقة التي استخدمها الإسبرطيون تقريباً وذلك بتركها حرة تعيش في ظل قوانينها الخاصة، إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك واضطروا إلى تخريب كثير من المدن بها حتى يضمنوا الاحتفاظ بها.

ففي الحقيقة لم تكن هناك طريقة أكيدة للإبقاء عليها سوى التخريب ومن يصبح حاكماً لمدينة حرة ولا يدمرها فليتوقع أن تقضي هي عليه، لأنها ستجد دائماً الدافع للتمرد باسم الحرية وباسم أحوالها القديمة وهي أشياء لا تنسى لا بمرور الزمن ولا بما يناله أهلها من مزايا. ومهما فعل الحاكم ومهما احتاط للأمر فإن أهل المدينة سيستجيبون لندائها فورا عند حدوث أي طارئ، وذلك مثلما حدث في بيزا بعد أن سيطر عليها الفلورنسيون واستعبدوها لسنوات عديدة .ولكن عندما تكون المدن أو الأقاليم قد ألفت الحياة في ظل أمير وأسرة حاكمة ثم تختفي هذه الأسرة تماماً، فإن هذه المدن قد اعتادت على الطاعة من جهة، ومن جهة أخرى لا يجدون أميراً لهم ،ولا يستطيعون الاتحاد تحت راية واحد يختارونه من بينهم ولا يعرفون حياة الحرية، لهذا فإنهم لن يقدموا على حمل السلاح بسرعة وسيتمكن الأمير من الانتصار عليهم بسهولة شديدة ومن دعم موقفه وتأمينه لكن في الجمهوريات الحياة أفضل والعداء أشد، كما أن الرغبة في الانتقام تكون أشد، فالناس لن تتخلى عن حريتها بسهولة لذلك فإن الطريقة الأكيدة هي إما أن نخربها ، أو أن نقيم فيها حول الولايات الجديدة التي ضمها الأمير .

ولا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة حديثة جداً سواء فيما يخص الأمير أو الولاية وذلك في أثناء حديثي عن الولايات الجديدة وذلك لأن الناس دائماً يسيرون في الدروب التي طرقها غيرهم، وأن تحاكي أعمالهم أعمال الآخرين والعاقل من الرجال لا يستطيع أن يتبع آثار الآخرين ويقلدهم تماماً ولا أن يحقق ما حققوه من نجاح وتميز وإن لم يبلغ حصتهم من العظمة والتميز فسيصيبه نفحة منها على أي حال. وهو بهذا يفعل مثلما يفعل الرماة المحترفون الذين يصوبون إلى نقطة أعلى من النقطة التي يريدونها حينما يكون الهدف بعيداً جداً وهم على علم بمدى الرمي الممكن للقوس الذي يستخدمونه وهم بالتصويب على ما هو أبعد.

وعلى هذا الأساس أقول بأن السيطرة على الأمور في الولايات الجديدة تتفاوت تبعا لقدرات من يستولي عليها ولما كان أي فرد عادي لا يصل إلى مرتبة الإمارة إلا من واقع قدراته الفائقة أو حظه السعيد، فإن أحد هذين الأمرين يخفف ما يلقاه من مصاعب كثيرة، ومع هذا فإن من لا يعتمد على حسن الطالع يحفظ نفسه على أفضل حال.

ومما يخفف العبء الجديد عن الأمير أيضا هو إقامته في الإقليم الجديد، إذا لم يكن لديه غيره أما إذا أردنا التحدث عن هؤلاء الحكام بفضل ما لديهم من قدرات عالية وليس بفضل حظهم السعيد، فسنجد أن أعظمهم جميعاً هو موسى عليه السلام وكورش ورومولوس وتيسيوس وغيرهم وعلى الرغم من أننا لا ينبغي لنا أن نتحدث عن موسى لأنه رسول الله الذي نفذ ما أمر به،إلا أنه يظل جديرة بالإعجاب لأنه ذو فضل أهله لأن يكون كليم الله أما كورش وغيره ممن ورثوا الممالك أو أسسوها فإنهم جميعا يستحقون الإعجاب فما قاموا به من أعمال وما حققوه لا يختلف كثيرا عما قام به موسى عليه السلام رغم أنه كان روسو وإذا ما تفحصنا حياتهم وأعمالهم لن نجد أنهم قد ركنوا إلى الحظ في أي شيء لكن ما حصلوا عليه من فرص هو ما ساعدهم على صياغة ما حولهم فيما رأوه مناسبة ولولا هذه الفرص لضاعت قدراتهم أدراج الرياح وبدون تلك القدرات لما كان للفرص أي معنى وهكذا كان من الضروري لموسى أن يجد بني إسرائيل عبيدة في مصر وأن يضطهدهم المصريون

وذلك حتى يكونوا مستعدين للسير خلفه ليتخلصوا من العبودية وكان من الضروري ألا يستطيع رومولوس البقاء في ألبا، وأن يترك في العراء يوم مولده حتى يصبح ملك روما ومؤسس تلك الأمة وكان من الضروري أيضا أن يجد كورش أن الفرس ساخطون على إمبراطورية الميديون، وأن يكون الميديون ضعفاء ومخنثين بسبب طول فترة السلم وما كان لتيسيوس أن يظهر قدراته لولا أنه وجد أن الأثينيين مشتتون فهذه الفرص قد سنحت لهؤلاء الرجال، وساعدتهم صفاتهم العظيمة على الاستفادة منها وهم بذلك يزيدون من رفعة أوطانهم ويزيدونها فلاحة وسعادة .

إن من يستفيدون من قدراتهم حتى يصبحوا أمراء يحصلون على الإمارة بصعوبة، إلا أنهم يحافظون عليها بسهولة والصعوبات التي تواجههم في ذلك ترجع إلى حد ما إلى القواعد والتعديلات الجديدة التي يضطرون إلى إدخالها حتى يستتب السلام في ولاياتهم ويجب أن ندرك أنه لا يوجد أصعب من بدء نظام جديد لتسيير الأمور وتنفيذه فنجاحه مشكوك في أمره وليس هناك ما هو أخطر من التعرض لهذا الأمر

لأن من يريد الإصلاح لابد له من أعداء وهم جميع من كانوا يستفيدون من النظام القديم، وهناك أيضاً من يؤيده بفتور رغم استفادتهم من النظام الجديد ويرجع هذا الفتور من ناحية إلى خوفهم من خصومهم الذين يساندهم القانون، ومن ناحية أخرى إلى أن الناس لا تؤمن بالجديد إلا بعد أن تجربه فعلا وعلى هذا فإن المصلح يهاجمه خصومه بحماس شديد في كل فرصة، بينما يدافع عنه الآخرين دفاعاً فاتراً، حتى أنه يواجه خطر كبير جداً فإذا استطاعوا الاعتماد على سطوتهم ولديهم القدرة على استخدام قوتهم فإنهم لا يفشلون إلا فيما ندر وبهذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم وذلك يرجع إلى أن طبيعة البشر متقلبة ومن السهل تحفيزهم لشيء ما ولكن من الصعب استمرار هذا الحافز،ولذلك يجب أن نرتب أمورنا حتى يمكننا أن نستخدم القوة معهم لنردهم إلى الإيمان بما ارتدوا عنه ولو كان كل من موسى عليه السلام وكورش وتيسيوس ورومولوس عز من السلاح لما استطاعوا أن يجعلوا الآخرين يحترمون دساتيرهم لفترات طويلة.

وهذا هو ما حدث في عصرنا الحالي مع الأخ جيرولا مو سافونا حيث فشل فشلاً ذريعا في تطبيق شريعته الجديدة عندما بدأ الكثير من الناس في الكفر به ولم يكن لديه قوة تمكنه من أن يجبرهم للعودة إلى الإيمان بما يقوم به وعلى ذلك فإن من هم مثل هذا الرجل يجدون صعوبة كبيرة في شق طريقهم، فهم يقابلون جميع الأخطار في طريقهم ، ولابد لهم من التغلب عليها بما يملكون من قدرات، ولكن بمجرد أن يتغلبوا عليها ويصلوا إلى مكانة عند قومهم ويسحقوا من يحسدهم عليها، يمكنهم أن يظلوا أقوياء مكرمين وسعداء وهناك مثال هيرو السيراكوزي الذي أصبح أمير سيراكوز بعد أن كان مجرد فرد عادي ولم يتدخل الحظ في ذلك مطلقاً لأن أهل سيراكوز الذين كانوا مضطهدين قد اختاروه رئيساً لهم، وقد ارتقى بما لديه من قدرات من هذا المركز إلى مرتبة الإمارة وقيل عنه لم يكن ينقصه لكي يحكم وهو مازال فرداً عادياً سوى المملكة وقد ألغى نظام الجندية القديم وأحل محله نظام جديد وتخلي عن جميع الأحلاف القدامى وعقد غيرها وعندما أصبح عنده أصدقاء وجنود من اختياره أصبح قادراً أن يعتمد على ذلك وهو آمن

وبينما وجد صعوبة في الوصول إلى مكانته إلا أنه لم يتعب كثيراً في المحافظة عليها.

الممالك الجديدة التي يتم الحصول عليها بقوة الأخرين أو بالصدفة:

إن من ارتفع من مكانة المواطن العادي إلى منصب الأمير بمحض الصدفة لا يواجه سوى متاعب قليلة حتى يصل لهذه المكانة ، إلا أنه يواجه كثيراً من الصعاب عندما يريد الحفاظ على هذا المنصب وهم لا يجدون أي صعاب في طريق المناصب لأنهم يطيرون إليها أما ما يجدونه من صعاب فإنها تحدث بعدما يستقرون فيها ومن أمثال هؤلاء من حصل على دولة في مقابل المال أو تفضلاً ممن يمنحه هذا المنصب كما حدث في كثير من الحالات الإغريقية في مدن أيونا وميلسبونت، وهم من جعلهم داريوس أمراء للسيطرة على هذه الأماكن من أجل سلامته وسلطانه

ومن أمثال من هؤلاء أيضا الأباطرة الذين ارتفعوا إلى تلك المناصب برشوة الجيش ، حيث اعتمدوا اعتماداً تاماً على النوايا الحسنة لمن يساعدهم ، وعلى حسن طالعهم وهما أمران لا يستمران طويلا ولا يظلان ثابتين بنفس القدر بصفة دائمة وهم لا يعرفون كيفية المحافظة على الولايات ولم يمروا بمواقف تمكنهم من ذلك وإن لم يكن هذا الفرد العادي الذي عاش حياة عادية ذا عبقرية فذة ، فلن يعرف كيف يأمر وينهي وهم في ذلك لن يستطيعوا الحفاظ على أنفسهم لأنهم لا يملكون قوات تدين لهم بالولاء، إضافة إلى أن الدول التي تنمو سريعاً مثلها في ذلك مثل أي شيء آخر ينمو سريعاً لن تستطيع أن تثبت جذورها وتتعمق كما أنها تدمر بسبب أول عاصفة تهب عليها وهناك استثناء وهو أن يكون من وصل إلى الإمارة قادراً على اتخاذ خطوات يحافظ بها على ما ألقاه إليه القدر، ثم بعد ذلك يضع الأسس التي يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء وسوف أضرب هنا مثالين قد قفزا إلى ذاكرتي وهما يجسدان الوصول إلى الإمارة إما بالقدرة ، أو بحسن الطالع، وهذان المثالان هما: فرانتشسكو سفورنسا وقيصر بورجيا

فقد أصبح فرانتشسكو دوق ميلانو بالوسائل المناسبة ، وبسبب قدراته، بعدما كان مواطنا عادياً وبقليل من المعاناة حافظ على ما حصل عليه بعد مروره بصعوبات كبيرة ومن جهة أخرى حصل قيصر بورجيا المعروف باسم دوق فالنتين على الملك بفضل نفوذ والده،وفقده عندما فقد هذا النفوذ، وذلك على الرغم من أنه بذل كل ما يمكن أن يقوم به رجل حكيم ، حتى يوطد أقدامه في ولاية حصل عليها بسبب ما لغيره من قدرات وسلاح ومن لم يزس قواعد البناء في وقتها المناسب يمكنه أن يفعل ذلك فيما بعد رغم ما في الأمر من خطر على البناء نفسه ، وما فيه من عناء على مهندس هذا البناء ولو نظر المرء إلى الإجراءات التي اتخذها الدوق فسوف يلاحظ قوة الأسس التي وضعها لسلطانه القادم، وتأمل هذه الإجراءات شي لازم، فما قام به الدوق لا يفوقه شئ آخر، ولا يقلل من قيمته أنه استخدم وسائل غير ناجحة، فهذا ليس خطأه، ولكنه كان بسبب سوء حظه الشديد .

وعندما أراد الإسكندر السادس أن يعلي من شأن ابنه الدوق كان عليه أن يمر بكثير من الصعاب في الحاضر والمستقبل

وأول ما واجهه من مشكلات هو أنه لم يجد سبيلاً لجعله حاكماً لأي ولاية لا تخص الكنيسة وكان يعلم أن محاولته لكي يسيطر على مدن للبابا لن ترضي دوق ميلانو والبنادقة لأن فائنزا وريميني كانتا تحت حماية البنادقة في ذلك الوقت بالإضافة إلى أنه لاحظ أن القوات المسلحة في إيطاليا وخاصة تلك القوات التي يمكنها أن تخدمه كانت تحت إمرة أولئك الذين يخشون عظمة البابا، وهو بالتالي لا يمكنه أن يعتمد عليهم وذلك لأنها جميعاً كانت تحت قيادة الأورسيني وكولونا واتباعهما لذلك كان من الضروري بالنسبة له أن يجعل الحالة الراهنة في إيطاليا تضطرب، وأن يثير الفتن في الولايات الإيطالية حتى يضمن السيادة على جزء منها وقد كان ذلك يسيراً بالنسبة له حيث وجد أن البنادقة وبسبب دوافع أخرى قد دعوا الفرنسيين إلى دخول إيطاليا وهو لم يعرض ذلك فحسب بل إنه سهله بإنهاء الزواج الأول للملك لويس وهكذا جاء الملك إلى إيطاليا بمساعدة البنادقة ورضاء الاسكندر ولم يكد الملك يصل إلى ميلان حتى أخذ منه البابا قوات لحملته على رومانا التي أمكن فتحها بسبب شهرة الملك وبعدما تم له ما أراد

وسيطر على رومانا وهزم الكولونيين، أعاقه عن الاحتفاظ بها والتقدم أمران اثنان: أولهما أنه شك في ولاء قواته ، وثانيهما هو النية الفرنسية بمعنى أنه خشي أن تتخلى عنه قوات الأورسيني التي سبق له استخدامها وحققت له النجاح ، وهو يخشى في نفس الوقت أن تكون سبباً لفشله فهي قد لا تعوقه عن التوسع فقط بل قد تسلبه ما فتحه حتى الآن كما خشي أن يفعل الملك نفس الشيء وكان دليله على ذلك أنه بعدما سيطر على فائنزا أغار على بولونيا فتخلف عنه الأورسيني أما بالنسبة للملك فقد تنبه لنواياه عندما استولى على دوقية أوربينو وهاجم توسكانيا فأوقفه الملك عن هذه الحملة ومنذ ذلك الحين عزم الدوق على ألا يعتمد على أسلحة غير أسلحته، أو أن يعتمد على حسن طالع يخص أحداً غيره، وكان أول ما فعله هو إضعاف أحزاب الأورسيني والكولونا في روما وذلك بأن جذب إلى صفه جميع أتباعهما من الأعيان،وجعلهم من تابعيه بأن أجزل لهم العطاء وعينهم في مناصب ، وولاهم أعمالاً كل حسب قدره، وخلال شهور قليلة انقطعت صلتهم بأحزابهم والتصقوا بالدوق بشدة وبعد أن سحق زعماء الكولونا

انتهز الفرصة لكي يبطش بزعماء الأورسيني حين واتته الفرصة فأحسن استغلالها وكان الأورسينيون حين رأوا أن عظمة الدوق والكنيسة ستعني سقوطهم دعوا إلى عقد مجلس في ماجيوني وفي ذلك الحين قامت ثورة أوربينو وحدثت اضطرابات في رومانا، وظهرت أمام الدوق أخطار لا تحصى، لكنه استطاع أن يتغلب عليها كلها بمساعدة الفرنسيين وبعد أن استعاد سمعته لم يعد يثق فى القوات الفرنسية أو أي قوات أجنبية ولم يغامر بالتحالف مع أي منها. فلجأ للخداع فأخفى أغراضه الحقيقية جيدا ، حتى سالمه الأورسينيون ، وذلك بأن نزع كل ما كان لدي ممثلهم السيد باولو من شكوك بأن أغدق عليه بالمال والملابس والجياد حتى أغرتهم سذاجتهم ، فأتوا إلى سنجاجليا ووقعوا في قبضته وبهذا تخلص الدوق نهائياً من هؤلاء الزعماء بهذه الطريقة ، وجعل من أنصارهم أصدقاء له ، ووضع أسس قوية جداً لنفوذه ثم استولى على كامل رومانا مع دوقية أوربينو، وكسب رضا سكانها الذين بدءوا يشعرون بمميزات حكمه.

وهذا الدور جدير بأن يلاحظه الآخرون ويسيرون على منواله فعندما سيطر الدوق على رومانا كان حكامة السابقون ضعفاء وكانوا ينهبون الرعية بدلاً من أن يحكموهم، ويعملون على فرقتهم وليس توحيدهم، حتى أصبحت المقاطعة فريسة للصوصية ، والسلب ، وجميع أنواع الفوضى لذلك رأى الدوق أن إيجاد حكومة صالحة فيها هو أمر مهم جداً ، حتى يجعل أهلها مسالمين ومدينين لحكمه بالطاعة لذلك فقد ولى عليهم روميرو دي أوركو وكان رجلاً قاسياً ، وقادراً ومنحه سلطات كاملاً فنجح روميرو نجاحاً كبيراً في توحيد البلاد وتنظيمها في وقت قصير، إلا أن الدوق قد رأي أن السلطة المتناهية غير مناسبة ، وأنها من الممكن أن تولد كراهية في نفوس الناس، فأنشأ داراً مدنية للعدل برئاسة رجل ممتاز وعينت كل مدينة محامياً خاصاً بها في هذه الدار ولما علم أن ما حدث من قسوة بالأمس القريب قد ولد في النفوس مقدار من الكراهية قرر أن يعلن للجميع أن ما حدث لم يكن بسبب أوامر أصدرها وإنما بسبب ميول الوزير الفظة، وذلك لكي يطهر نفوس الناس ويكسبها تماماً لصالحه

وعندما حانت الفرصة قتل روميرو وشطر جسده إلى نصفين، ثم ألقاه ذات صباح في ميدان عام في شيزينا وبجانبه قطعة من الخشب وسكين ملطخ بالدماء، فذهل الشعب لوحشية هذا المنظر إلا أنه رضي بذلك .

ولنعد إلى حيث توقفنا، الآن أصبح الدوق قوياً ، وفي مأمن من الأخطار الراهنة ولديه سلاحه الخاص ، وقد قضى به إلى حد كبير على القوى المجاورة التي قد تؤذيه، ولم يبق أمامه الآن إذا أراد أن يواصل الفتح سوى أن يفوز باحترام فرنسا له حيث علم أن الملك الذي اكتشف خطأه مؤخراً قد لا يمد يد العون إليه أبدا لذلك بدأ في البحث عن أحلاف جديدة وفي مراوغة فرنسا حول الحملة التي كان الفرنسيون يقومون بها تجاه نابولي وضد الأسبان الذين كانوا يحاصرون جيتا .

أما فيما يخص المستقبل فقد خشي أن يعاديه وريث جديد لولايات الكنيسة ، وربما يسعى لأن يسلب منه ما قد منحه إياه الإسكندر لذلك حاول اتقاء هذا الأمر بأربعة طرق

وهي : أولا : قضى قضاء مبرماً على كل من تجري في عروقه دماء الأسر الحاكمة التي اغتصب ملكها حتى لا يمكن للبابا أن يستغل أي فرصة ضده ثانياً : كسب جميع نبلاء روما إلى صفه ليكبح بهم جماح البابا وثالثاً: لم يدخر وسعاً في السيطرة على مجلس الكرادلة ورابعاً : حصل قبل وفاة البابا على نفوذ كبير يمكنه من أن يصد أول هجوم قد يشن عليه وعند وفاة البابا كان الدوق قد أنجز الأمور الثلاثة الأولى وعلى وشك إنجاز الأمر الرابع فقد قتل كثيرا ممن استطاع الوصول إليهم من الحكام السابقين وفر منهم عدد قليل جداً ، وتمكن من ضم نبلاء روما إلى صفه وكان له نفوذ كبير في مجلس الكرادلة أما بالنسبة لضم أراض جديدة ، فقد وضع لنفسه خطة لكي يصبح سيد توسكانيا وقد كان ملك بورجيا وبيومبينو منذ فترة وجيزة كما فرض حمايته على بيزا وقد سيطر عليها عندما لم يعد يخشى الفرنسيين لأن الأسبان قد جردوا الفرنسيين من مملكة نابولي بطريقة جعلت كلا الطرفين يخطب وده ثم استسلمت له لوكا وسيينا دفعة واحدة بسبب كراهيتهم للفلورنسيين من جهة والخوف من جهة أخرى

فلم تكن تملك أي موارد فإذا كان الدوق قد حقق نجاحاً مثل الذي حققه عام وفاة الاسكندر، لكان له من القوة والقدرة ما يمكنه من أن يحافظ على نفسه دون الحاجة للاعتماد على قوة الآخرين لكن الإسكندر مات بعد خمس سنوات فقط من إشهار قيصر بورجيا لسيفه لأول مرة ، وتركه وهو لم تستتب له الأمر إلا في رومانا أما بقية الأنحاء فهي معلقة بين جيشين قويين جداً ومعاديين له وكان يعاني أيضاً من مرض عضال إلا أن الدوق كان لديه القدرة والحيوية ويعرف جيداً كيف يكسب تأييد الرجال وكيف يقهرهم وقد كانت قواعد ملكه التي وضعها في فترة وجيزة قوية جداً، لدرجة أنه لولا وجود هذين الجيشين على مقربة منه واعتلال صحته لأمكنه التغلب على بقية الصعاب وتتضح قوة الأسس التي وضعها في انتظار رومانا له لمدة تزيد عن شهر رغم كونه نصف ميت في روما، إلا أن مركزه ظل قوياً وعلى الرغم من أن الباجليوني والفيتلي

والأورسيني قد دخلوا إلى روما، إلا أنهم لم يجدوا فيها من يقف ضده فقد كان في استطاعة الدوق على أقل تقدير أن يحول بين كرسي البابوية

وبين من لا يرغب هو فيه، إذا لم يكن قادراً على تنصيب من يشاء وربما تيسرت له كل هذه الأمور لو كان سليما وبصحة جيدة حين توفي الإسكندر ولقد أخبرني في يوم انتخاب البابا يوليوس الثاني بأنه قد فكر في كل ما يمكن أن يحدث عند وفاة أبيه ، واحتاط لجميع الأمور عدا أمر واحد لم يدر بخلده وهو أنه هو نفسه سيكون قريباً من الموت في ذلك اليوم .

وعندما أراجع أعمال الدوق لا أجد ما ألومه عليه بل إني أجد لزاماً علي أن أرفعه كمثال يجب أن يحتذيه كل من حصل على سلطان بسبب ما قامت به قوات غيره وهو بسبب شجاعته العظيمة وطموحه الكبير لم يكن أمامه أن يفعل غير ما فعل، وما أحبط خططة إلا قصر حياة الإسكندر ومرضه هو شخصياً لذلك فإن على كل من يعد الضروريات لتأمين إمارته الجديدة أن يؤمن نفسه ضد أعدائه ، وأن يكسب أصدقاء،وتكون له الغلبة بالقوة أو بالخديعة وأن يحبه الشعب ويخشاه حيث يسير جنوده خلفه ويحترموه وأن يسحق من يستطيع أن يؤذيه ، أو من الممكن أن يؤذيه

وأن يستبدل القديم من الأوضاع بكل ما هو حديث وأن يكون صارماً وشفوق في نفس الوقت، كريم الخصال واسع المدارك وأن يلغي نظام الجندية القديم ويحل محله نظاماً جديداً وأن يحافظ على صداقته مع الملوك والأمراء بطريقة تسعدهم إذا فعلوا ما يفيده، وتخيفهم منه إذا ناله منهم مضرة ومثل هذا الأمير لن يجد مثالاً يحتذيه مثل أعمال هذا الدوق إلا أن النقد الوحيد الذي يمكن أن يوجه لهذا القيصر هو انتخاب جوليوس الثاني للبابوية، حيث أساء الاختيار،لأنه كما قيل إن لم يكن قادرة على انتخاب بابا يوافقه هو، فكان عليه ألا يسمح لأي كاردينال بأن يصل للبابوية كما كان من واجبه ألا يسمح بانتخاب أي كاردينال سبق أن أساء هو إليه، أو من قد يخشاه الدوق إذا وصل إلى كرسي البابوية إن من أساء إليهم القيصر هم :القديس بطرس والقديس جورجيو واسكانيو وكان أي واحد من غير هؤلاء جميعاً سيخشاه لو انتخب للبابوية إلا روهان والكرادلة الأسبان لأن الأسبان يخشونه لما بينه وبينهم من صلات والتزامات أما روهان فقد كان على قرابة بالملك وله نفوذ عظيم

ولهذه الأسباب كان على الدوق أن ينصب في كرسي البابوية واحداً من الأسبان، وإن لم يستطع كان عليه أن يوافق على روهان وليس على القديس بطرس إن من يظن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء يخطئ خطأ جسيماً، لهذا فإن الدوق قد أخطأ في هذا الاختيار، وكان هذا الخطأ سبب هلاكه التام .

حول من وصلوا لمنصب الأمير بالخديعة:

بما أنه لا تزال هناك طريقتان للوصول إلى الإمارة دون الحاجة لحسن الطالع أو استخدام القدرات ولا ينبغي أن نهمل هاتين الطريقتين إن إحدى الطريقتين يمكن مناقشتها بتعمق لو أننا نتحدث عن الجمهوريات وهذا عندما يحصل فرد من علية القوم على مركز الإمارة باستخدام أساليب حقيرة ومشينة ، أو عندما يصبح أحد المواطنين أميراً على دولته التي يعيش فيها بناء على رضى من المواطنين وعندما أتحدث عن هذه الطريقة، سأعطي مثالين أحدهما قديم ، والآخر حديث لم يبزغ نجم أجاثوكل الصقلي من بين علية القوم

ليعتلي عرش سراكوزا بل إنه جاء من قاع أقل طبقات المجتمع هو ابن صانع فار، وقد عاش حياة بالغة التعاسة خلال فترات حياته المختلفة وكان ذا جسد كبير وعقل مستنير ودهاء شديد وعندما انضم إلى صفوف الجيش تدرج فيه بسرعة، ثم قرر أن يصبح أميراً على سراكوزا بالقوة ، ودون انتظار لأي خطوات دستورية متبعة في الجمهورية آنذاك فاتفق مع هاميلكار القرطاجني الذي حارب معه في غزو صقلية، ثم استدعى مجلس الشيوخ في سراكوزا كما لو كان سيشاورهم في أمر من الأمور الهامة التي تتعلق بالجمهورية، وأمر باغتيال جميع أعضاء مجلس الشيوخ ، وجميع من حضر الاجتماع من علية القوم والأعيان ثم نصب نفسه أميرا بعد قتلهم دونما أي عصيان مدني ورغم أنه تعرض للغزو والحصار مرتين من جيوش قرطاجنة، إلا أنه استطاع الدفاع عن المدينة ، كما أنه استطاع أيضاً أن يغزو بجزء من جيشه بلاداً في شمال أفريقيا ثم يعود منها بجنوده ليرفع الحصار عن سراكوزا كما أنه أوصل القرطاجنيين إلى وضع محرج جداً جعلهم مضطرين إلى التحالف معه تاركين له حكم صقلية

فهو لم يصل بفضل أي شخص ساعده لكنه تدرج فقط في المناصب العسكرية، وواجه آلاف الصعوبات والمخاطر إلى أن وصل إلى منصب الأمير الذي حافظ عليه فيما بعد بشجاعة وتضحيات كثيرة لكن قتل المواطنين لا يعتبر من الفضائل، كما أن التغرير بالأصدقاء ، وفقدان العقيدة ، والرحمة ، والدين يمكن أن تصل بنا إلى القوة وليس إلى المجد وإذا كانت فضائل أجاثوكل المتمثلة في شجاعته في مواجهة الأخطار وعظمته عند مواجهة المشكلات ترفعه إلى مصاف القادة الناجحين، فإن قسوته وبربريته وانعدام الإنسانية عنده وأعماله الوحشية التي لا تحصى لا ترفعه إلى مصاف المشاهير .

وفي عصرنا الحالي، وعند تنصيب البابا الإسكندر السادس، كان أولفرتو دافرمو طفلاً صغيراً يتيماً في رعاية خاله جيوفاني فوجلياني، وقد رعاه خاله ورباه ، ثم أرسله في ريعان شبابه ليعمل كجندي ضمن قوات باولو فيتلي حتى يتمكن بعد حصوله على التدريب المناسب من الوصول إلى رتبة عسكرية عالية وبسبب ذكائه الحاد ونشاطه الجسدي والعقلي أصبح أحد قادة القوات

لكنه كان يعتقد أنه من العبودية أن يعمل تحت إمرة آخرين فقرر أن يكون أميراً على مسقط رأسه فيرمو وأن يحتلها بمساعدة أهلها الذين فضلوا العمل تحت إمرته من أجل تحرير مدينتهم ، كما ساعده أيضاً البنادقة فكتب رسالة إلى خاله جيوفاني فوجلياني قال له فيها : إنه بعد أن تغرب سنوات عديدة عن مدينته يود العودة إليها لأنه يريد أن يراه ويرى المدينة، حتى يتمكن من تفحص أحوالها قدر الإمكان ولأنه قد كافح من أجل الوصول إلى المجد، لذلك فإن مواطنيه يجب أن يعرفوا كيف أنه لم يضيع وقته هباء لذلك فإنه سيصطحب معه مائة من الفرسان وهم من أتباعه وأصدقائه وطلب من خاله أن يعلن ذلك على الملأ حتى يستقبله مواطنو فيرمو استقباط يكرمه باعتباره أيضا تلميذا لهذا الخال. ولم يخفق الخال جيوفاني في عمل ما يلزم لاستقبال ابن أخته وفرسانه أعظم استقبال، فاستقبله أهالي فيرمو أعظم استقبال وآواه هو وفرسانه في بيته وبعد أن مضت عدة أيام أعد فيها خطة الخديعة دعا أولفرتو خاله جيوفاني وكل علية القوم في فيرمو إلى مأدبة كبيرة وبعد الطعام والشراب والتسلية المعتادة في مثل هذه المآدب

تطرق أولفرتو ببراعة شديدة للحديث عن عظمة البابا الإسكندر وابنه قيصر بورجيا وقد استجاب خاله والحضور للحديث إلا أنه هب واقفاً وقال فجأة إن الحديث عن مثل هذه الأمور يجب أن يكون في مكان مناسب وانسحب إلى غرفة جانبية تبعه إليها خاله جيوفاني وجميع الحضور. وما أن جلسوا في مقاعدهم حتى اندفع إليهم الجنود من أماكن اختفائهم وقتلوا الجميع بما فيهم جيوفاني وبعد هذه المذبحة ركب أولفرتو حصانه مع جنوده وسار عبر شوارع المدينة إلى قصر الحاكم وحاصره وأجبره على تكوين حكومة نصب نفسه أميراً عليها وكان جميع من قتلهم يستطيعون إفساد هذا الموقف لو ظلوا أحياء كما أنه حصن نفسه بالجديد من الأنظمة سواء المدنية أو العسكرية بطريقة تجعله لا يأمن على نفسه فقط خلال عام واحد يقضيه في مدينة فيرمو ،لكنه يصبح أيضاً مصدر خوف لجميع جيرانه وقد كان من الصعب الإطاحة به لولا أن قيصر بورجيا قد خدعه عندما سيطر على الأورسيني وسنجاجليا حيث قبض عليه بعد عام واحد مما ارتكبه من فضائع وأعدم هو وفيتلوزو الذي علمه الوحشية والتجبر.

وقد يتعجب البعض من أن أجاثوكل والآخرين من أمثاله يستطيعون البقاء في بلادهم لعدة سنوات بعد العديد من الجرائم الوحشية، ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد الأعداء من الخارج دون أن يثور عليهم رعاياهم،على الرغم من أن غيرهم لم يستطع الحفاظ على منصبه في وقت السلم وليس وقت الحرب وأنا اعتقد أن ذلك سببه القدرة على استعراض القسوة بطريقة مناسبة فحسن ارتكاب الجريمة القاسية إذا كان بإمكاننا استخدام كلمة حسن عند الحديث عن النوايا الشريرة يمكن من جني الثمار فيما بعد أما عندما ترتكب هذه الفظائع بطريقة خاطئة فإنها تزيد من أعداد من يعارضوننا مع مرور الوقت ، ولا تقضي عليهم ومن يستخدم هذه الطريقة الأولى مثل أجاثوكل يمكنهم علاج أخطائهم بطريقة ما أما بالنسبة للآخرين الذين يستخدمون الطريقة الثانية فمن الصعب عليهم الحفاظ على أنفسهم واستمرارهم .

ومن الملاحظ أنه عندما نستولي على ولاية، فإنه يجب على المنتصر أن يخطط لجميع جرائمه مرة واحدة حتى لا يضطر للعودة إليها في وقت آخر وأن تكون له قدرة على اتخاذ تغييرات جديدة

تؤكد للعامة الحرص على مصلحتهم ليكسبهم إلى صفه ومن يفعل غير ذلك عن جبن أو بناء على نصيحة من حوله سيظل من المفروض عليه أن يقف وفي يده الخنجر، ولن يتمكن أبدأ من الاعتماد على رعاياه، لأنهم لن يثقوا به ، بسبب كثرة مشكلاته وأخطائه وإذا كانت الأخطاء لابد واقعة فيحسن أن تكون دفعة واحدة حتى تكون أقل تأثيراً من واقعات متعددة تبقي آثارها أما المزايا فيجب إعطاؤها للرعايا جرعة جرعة حتى يستمتعوا بها ويشعروا بفائدتها وقبل كل شيء لابد للأمير أن يعيش وسط رعيته بطريقة لا يؤثر فيها حدوث حادث له فيخرجه عما يخطط سواء كان حادث مؤلمأ أو سعيداً وذلك لأنك لا تكون في هذا الموقف موفقاً إذا استخدمت الشدة، وإن فعلت الخير لن تجني من ورائه أي فائدة، لأنه سيؤخذ على أنه اضطرار وبلا أي فائدة .

حول الإمارات المدنية:

وهو نوع لا يمكن الوصول إليه بالقدرات ، ولكنه يعتمد فقط على مكر يسانده حسن الطالع، وذلك لأن الإنسان يبلغ هذا المركز

إما برغبة من جموع الشعب ، أو بتأييد من الطبقة الأرستقراطية، وهما جماعتان توجدان في كل مدينة أياً كانت، وهما متعارضتان بالطبع وهذا التعارض نتيجة لمحاولة عامة الشعب تحاشي تعسف الطبقة الأرستقراطية ، ومحاولة هذه الطبقة أن تسيطر على الشعب وتبطش به وينتج عن هاتين المصلحتين المتعارضتين في المدينة نتيجة واحدة من ثلاث نتائج: إما حكم مطلق أو حكم حر أو فوضى حيث يتمكن الشعب أو الطبقة الأرستقراطية من تكوين الحكومة الأولى ، والأمر يتوقف على ما يواتي من فرص لأي من الطرفين فالنبلاء عندما يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحداً منهم ليصبح أميراً يمكنهم أن يحققوا مشروعاتهم في ظل سلطانه ومن جهة أخرى يسعى الشعب إلى أن يرفع من بينه أميراً حينما لا يستطيع مقاومة النبلاء وهو أمير يصنعه الشعب ليحتمي بسلطته ومن يصبح أميراً بمساعدة النبلاء يعاني من مشكلات كبرى في سبيل الحفاظ على سلطانه أكثر من الذي يرفعه الشعب كما أنه سيجد حوله كثيرين يعتبرون أنفسهم أنداداً له

ومن هنا فهو لا يستطيع قيادة الآخرين وتوجيههم كما يريد أما من يرفعه الشعب إلى منصب الأمير، فإنه يجد نفسه متفرد والجميع يسعى لخدمته عدا نفر قليل كما أن المعاملة العادلة لن ترضي عنه طبقة النبلاء في حين أن نفس الأمر سيرضي عامة الشعب بسرعة فالعامة يرضون بالعدل بينما النبلاء يرغبون في التعسف والبطش وإضافة إلى ما سبق فإن الأمير لن يستطيع أن يتأكد من أن شعبه يكرهه لكثرة العدد لكنه من الممكن أن يعرف ذلك في طبقة النبلاء لأنهم قلة وأسوأ ما يمكن أن يحدث للأمير من شعب يكرهه هو أن يتخلى عنه، لكن النبلاء ينشطون لقاومته عندما يعادونه، بالإضافة إلى تخليهم عنه ولما كان النبلاء بعيدي النظر أكثر من الشعب وأشد منه مكراً فهم دائماً قادرون على تخليص أنفسهم بالانضمام إلى من يتوقعون له الغلبة في الوقت المناسب والأمير مضطر للحياة بين أفراد الشعب دون حاجة للطبقة الأرستقراطية ، فبإمكانه أن يوجدها ، أو أن يقضي عليها في أي وقت، وأن يحسن من مركزها في المجتمع ، أو يجردها منه كما يحلو له

وحتى أوضح هذا الأمر أكثر أقول: يجب علينا أن نتناول طبقة النبلاء بأسلوبين مختلفين ، أي أنهم إما أن يحكموا بطريقة تجعلهم يعتمدون عليك تماماً أو أن يتركوا فإذا ما كانوا محكومين تماماً ، ولم يصبهم الجشع فيجب عليك أن تكرمهم وتحبهم أما من يبتعد عنك ، فيجب معاملته بإحدى الطريقتين: فإذا كانوا يفعلون ذلك إحجاماً وجبناً، فليس لك أن تخشاهم في الضراء، ومن الممكن أن تستفيد من أهل الرأي منهم خاصة، كما أنهم يشرفونك في السراء أما أولئك المبتعدون عنك لغرض معين، فهذا يعني أنهم ذوو طموحات، وأنهم يفكرون في أنفسهم ولا يفكرون فيك لذا يجب على الأمير أن يحترس منهم وأن يعتبرهم أعداء غير ظاهرين يمكنهم المساهمة في سقوطه وقت الشدة لهذا يجب على أي أمير يرفعه الشعب ، وينصبه عليه أن يحافظ على محبته له مهما كلفه ذلك، وإن كان سيجده أمراً سهلاً لأن الشعب لا يريد شيئاً سوى العدل أما من وصل إلى منصب الإمارة بمساعدة النبلاء وضد إرادة الشعب فعليه أولاً أن يسعى لنيل رضى الشعب عنه وهو أمر سهل المنال لو أنه دافع عن الشعب

ولكان الناس لا ينسون فضل من لا يتوقعون منه إلا الشر، فإنهم سيميلون نحوه بسرعة وسينال تأييدهم أسرع مما لو كان قد ارتفع لمنصب الأمير بمساعدتهم له ويستطيع الأمير أن ينال رضا شعبه بالعديد من الطرق التي تختلف باختلاف الظروف، وهي لا تخضع لقاعدة ثابتة ولا أستطيع سوى أن أقول : إنه يجب عليه أن يكسب صداقة الشعب، وإلا فلن يجد لنفسه ملاذاً في حالة الخطر .

وقد صمد نابيس أمير إسبرطة لحصار بلاد اليونان جميعها ، وجيش روماني مظفر، ودافع عن وطنه ضدهم وصان بلاده ، وحين لاح الخطر اكتفى بأن تأكد من ولاء فئة قليلة، وما كان ذلك يكفيه لو أن شعبه يكرهه ففي مثل هذه الحالة يجد الإنسان نفسه مخدوعة مثلما حدث لجراكي في روما ولجورجيو سكالي في فلورنسا فالشعب لا يخدع أميراً يدعم ولايته له بالشجاعة والاستبسال هو قوي القلب ، ولا يتوانى عن الاستعداد بكل ما أوتي من قوة، فهو يستطيع أن يستنهض شعبه بعد أن يكون قد أحسن إرساء قواعد الولاية.

ولا يحيق الخطر بهذه الولايات إلا إذا تحول الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مستبد مطلق والحكام المطلقون إما أنهم هم القادة، أو أنهم يستخدمون ولاة لهم، ومركزهم في هذه الحالة الأخيرة يكون أكثر ضعفاً وفي مثل هذه الحالات من الخطر لا يستطيع الأمير أن يفرض سلطانه المطلق،لأن المواطنين لن يستطيعوا طاعة أوامره في حالة الطوارئ وهم من ألفوا تلقي الأوامر من الولاة وسوف يحتاج الأمير دائماً في الظروف الصعبة إلى رجال يمكنه الاعتماد عليهم لأن هذا الأمير لا يمكن أن يعتمد على ما يقطعه الموجودون حوله من رعية في وقت الهدوء والأمن، فالرعايا في حاجة إلى الإمارة، وهم مستعدون للإعلان أن حياتهم فداء للأمير لأن الموت بعيد عنهم ولكن في ساعة العسرة ، وحين تحتاج الدولة إلى المواطنين، لن يجد الأمير منهم في ذلك الوقت إلا القليل وهي تجربة شديدة الخطر، ولا يمكن أن تحدث إلا مرة واحدة وعلى ذلك فإن الأمير الحكيم يجب عليه أن يبحث عن وسائل تجعل رعاياه في حاجة مستمرة إلى حكومته ، وحينئذ سيخلصون الولاء له دائماً

كيف يجب قياس قوة كافة الإمارات ؟

وهناك أمر آخر هو: هل الأمير قادر على أن يحمي نفسه بمفرده عند الحاجة أم أنه في حاجة لحماية غيره دائماً وأنا أعتبر أن الأمراء الذين يستطيعون حماية أنفسهم بمفردهم ، هم من يستطيع منهم أن يجند جيش كافياً بسبب وفرة المال والرجال، ولن يقهرهم أي مغير عليهم. أما الأمراء الذين هم في حاجة إلى أن يحميهم غيرهم، فلن يستطيعوا منازلة الأعداء في ميدان القتال، وهم يضطرون للانسحاب إلى داخل المدن للدفاع عنها أما في الحالة الثانية فلا نجد شيئاً نقوله للأمير سوى أن نشجعه على أن يجمع المؤن ، ويحافظ عليها ، ويحسن استخدامها ، وأن يحاول تحصين مدينته ، ولا يشغل باله بما يحدث حولها في مدن أخرى أو قرى تابعة وكلما تمكن من تحصين مدينته والإمساك بزمام الأمور فيها كلما تحسب له عدوه وحذر منه، لأن المقاتلين يخشون دائماً شن العمليات التي يعرفون مدى صعوبتها مقدماً، وليس من السهل أبداً أن نهاجم من تكون تحصيناته قوية لا سيما عندما يكون محبوباً من شعبه

والمدن الألمانية تستمتع بكامل حريتها وتحيط بها أراض وسهول ريفية ضيقة وهي تطيع أمراءها طاعة كاملة ولا تخاف من أميرها ولا من نوابه ، وتحصينها جيد جداً لدرجة أن من يرى هذا التحصين يتأكد له أنه ليس هناك أفضل من ذلك فحول كل مدينة يوجد خندق مائي وحصن ومدافع ضخمة، وكل مدينة ألمانية تحتفظ بطعام وشراب ووقود كاف للمدينة في مخازن عامة إضافة إلى أن الألمان حتى يحافظوا على معنويات الشعب ورضاه يوفرون له الوظائف بأساليب عديدة خاصة الوظائف الحيوية للمدينة، ويمكن لأبناء الشعب التربح من تلك الوظائف لمدة عام كما أن التدريبات العسكرية مستمرة طوال العام ، ولها شهرة واسعة ، وهي دائمة الابتكار والتجديد فيما يخص الحفاظ على المدينة .

ومن هذا يتضح أن الأمير الذي يعيش في مدينة قويه ويحبه شعبه لا يمكن أن يهاجم ،ولو هوجم فإن من يهاجمه سيضطر إلى الانسحاب وهو يجر أذيال الخيبة والعار ولأن عالمنا سريع التغير، فإنه من المستحيل على أي قائد أن يستمر في حصار مدينة ما لمدة عام

ومن يحتج بأن الشعب لن يصبر حين يرى العدو وهو يحيط بالمدينة ويشعل النار فيما حولها من أمرك خاصة وأن طول الحصار ، وتعرضه للمصالح الخاصة للشعب سينسيه أميره وأرد على ذلك بأن الأمير القوي الشجاع عادة ما يتغلب على هذه الصعاب مرة بأن يملأ القلوب بالأمل ، ومرة بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو ومرة ثالثة بأن يتأكد من قدرات أولئك الذين يظهرون جرأتهم الزائدة أمامه.

حول الأنواع المختلفة للجندية وجنود المرتزقة:

وعن وسائل الهجوم والدفاع التي يمكن أن تستخدم في كل ولاية فقد سبق أن أكدت على أهمية وجود الدعائم القوية التي تساند الأمير، وإلا كان القضاء عليه مؤكداً وأهم دعائم كل الإمارات سواء كانت جديدة أم قديمة أم مختلطة هي وجود القوانين الجيدة والأسلحة الجيدة ولا توجد قوانين جيدة دون وجود أسلحة جيدة، فحيثما توجد القوانين الجيدة توجد الأسلحة الجيدة أيضاً، لذلك لن أناقش الآن القوانين

وسأستحدث فقط عن الأسلحة فأنا أرى أن الأسلحة التي يدافع بها أمير عن ممتلكاته إما أن تكون أسلحته الخاصة ، أو أسلحة لقوات مأجورة أو أسلحة حلفاء له أو مختلطة وأسلحة المأجورين والحلفاء بلا فائدة وخطيرة، وكل من يقيم دولته على أسلحة قوات مأجورة لن يستطيع التأكد من قوة وثبات ولايته لأنها قوات مفككة ولها مطامعها الخاصة، وغير منظمة ولا عهد لها، وهي تبدو قوية أمام الأصدقاء، لكنها جبانة عند مواجهة الأعداء، وهي لا تخشى الله ولا تصون عهدها مع الناس، وسقوطها مرهون بتأجيل العدوان عليها وهم ينهبونك في وقت السلم ، وينهبك العدو في وقت الحرب وسبب ذلك أنهم لا يجدون دافعا يدفعهم للبقاء في الميدان سوى الأجور الزهيدة التي لا تجعلهم على استعداد للموت من أجلك فهم مستعدون لأن يكونوا جنودك طالما أنك لن تقوم بحرب، ولكن عندما تبدأ الحرب، فإما أن يفروا أو أن يرحلوا معاً وأنا لست بحاجة لأن أبذل مجهوداً كي أثبت ذلك، فخراب إيطاليا لم يحدث إلا بسبب الاعتماد لسنوات عديدة على قوات المرتزقة وإن كان بعضهم قد ساعد الأمراء على بلوغ السلطة.

وقد ظهروا شجعاناً وأقوياء حين كان التنافس بين بعضهم البعض ، إلا أنهم لم يكونوا كذلك حينما جاءهم الأجنبي، مما أتاح للملك تشارلز ملك فرنسا أن يستولي على إيطاليا بأقل جهد ممكن ومن يعلل خراب إيطاليا بسبب الخطايا هو محق، لكنها ليست خطايانا كما يقولون، وإنما هي خطايا الأمراء التي تحدثت عنها، فنالوا هم أيضاً العقاب .

وسأشرح بالتفصيل عيوب هذه القوات المسلحة المرتزقة، حيث إن الضباط المرتزقة إما أن يكونوا ذوي كفاءة أو غير أكفاء فإذا كانوا أكفاء فإنه لا يمكن الاعتماد عليهم، لأنهم يثبتون لأنفسهم أنهم عظماء إما بابتزازك وأنت سيدهم أو بالضغط على غيرك لما هو في غير صالحك أما إذا كان الضابط غير كفء فإنه يدمرك تماماً وقد يرد على إنسان بقوله : إن ذلك ممكن حدوثه سواء كانت القوات من المرتزقة أو من غيرها وأنا أرد عليه بقولي : إن القوات يستخدمها أمير أو حاكم الجمهورية وعلى الأمير أن يتوجه بنفسه إلى موقع القائد، وعلى الجمهورية أن ترسل مواطنيها لهذا الغرض، فإذا اتضح عجز من أرسل فيجب على الجمهورية أن تغيره أما إذا كان قديراً

فإنها يجب أن تمنعه من تخطي الحدود المرسومة له بحكم القانون وتشير التجارب إلى أن الأمراء المسلحين والجمهوريات المسلحة هم فقط القادرون على تحقيق تقدم ملموس في حين لا تقدم القوات المرتزقة أي شيء سوى المضرة، كما أن الجمهورية المسلحة لا تخضع لحكم مواطن من أبنائها بسهولة كما يحدث في جمهورية مسلحة بقوات أجنبية .

وقد كانت روما وإسبرطة مسلحتين جيدا وأحرارة لقرون طويلة كما كان السويسريون مسلحين جيداً ونعموا بالحرية التامة ولدينا مثال من العصور القديمة للجنود المرتزقة وهم القرطاجنيون الذين بطش بهم جنودهم المأجورون بعد انتهاء أول حرب لهم مع الرومانيين، وذلك في حين أن القيادة كانت ما تزال لأبناء قرطاجنة كما أن أهل طيبة قد جعلوا فيليب المقدوني قائداً لقواتهم بعد موت أبامينوداس وقد جردهم من حريتهم بعد أن تم له النصر وقد استأجر أهل ميلانو فرانشيسكو سفورنسا لمحاربة البنادقة عندما مات الدوق فيليب وعندما تغلب على البنادقة في معركة كارافاجو تحالف معهم ليقمع أهل ميلانو

وهم من كان يعمل في خدمتهم وقد عمل أبوه في خدمة جويفانا ملكة نابولي، ثم تركها فجأة وهي بدون سلاح مما اضطرها لأن ترتمي في أحضان ملك الأرجون حتى لا تفقد مملكتها وإذا كان البنادقة والفلورنسيين قد وسعوا مملكاتهم فيما مضى باستخدام قوات المرتزقة، ولم يحدث أن ولى القادة أنفسهم كأمراء بل استمروا في ولائهم ودفاعهم عن الأمراء ، وأنا أرى أن الصدفة قد خدمت الفلورنسيين في تلك الحالة، حيث لم ينقلب عليهم القادة ذوو الكفاءة ، ولقي بعضهم الآخر معارضة، بينما وجهت مجموعة ثالثة مطامعها إلى وجهة أخرى إن من لم يقم بالانقلاب هو السير جون هوكوود، ونحن لا نستطيع الحكم على ولائه مادام لم يحقق نصراً والجميع يعرف أنه لو حقق نصراً فربما وقعت فلورنسا تحت رحمته كما أن البراتشسكي وسفورنسا الأب ضد بعضهم البعض على الدوام فكانوا عقبات دائمة أمام بعضهم البعض، فوجه سفورنسا أطماعه إلى لومبارديا، بينما توجه براتشو بأطماعه إلى الكنيسة ومملكة نابولي

ولنتناول ما حدث منذ فترة وجيزة حين نصب الفلورنسيون باولو فيتللي قائداً عليهم، وهو رجل حكيم جداً ارتفع إلى أعلى المراتب بعدما كان يشغل منصباً عادياً ولا يمكن أن ننكر أنه لو تمكن من الاستيلاء على بيزا لوجب على فلورنسا أن تحافظ على صداقته وتهتم بذلك بشدة لأنه لو حارب في صفوف أعدائهم، فلن يجدوا سبيلاً لمقاومته ولو كانوا قد احتفظوا به لكان عليهم أن يطيعوه أما بالنسبة للبنادقة فإذا تناولنا ما حققوه من تقدم، فسنجد أنهم قد نجحوا وحققوا مجداً طالما اعتمدوا على قواتهم الخاصة ، كما أنهم حاربوا ببسالة وشجاعة بالاعتماد على أبناء الطبقة الأرستقراطية وأبناء العامة حتى بدأوا حروبهم البرية وتخلوا عن هذه الميزة واتبعوا العادات الإيطالية وعند بدايتهم لتوسعهم البري لم يكن عليهم أن يخافوا من قوادهم، فرقعة الأرض ليست كبيرة وصيتهم لم يكن ذائعاً لكن ومثلما حدث تحت قيادة كارمينولا بعد أن اتسعت أملاكهم، وأدركوا خطأهم ، ورأوا فتور همته بعد أن هزم دوق ميلانو، رأوا ألا يقوموا بأي غزو جديد تحت إمرته فيما بعد

ولم تكن لديهم رغبة في طرده، ولا يستطيعون ذلك ، خشية فقدان ما قد تمت السيطرة عليه، فاضطروا إلى إعدامه حتى تطوى صفحته وعندئذ أصبح بارتولوميو دابرجاموا وروبرت توداسان سفرينو والكونت دي بتليانو وأمثالهم قادة لهم ، وكانوا يخشون أن يحققوا لهم الخسارة بدلاً من النصر، فخسروا في يوم واحد ما كسبوه بصعوبة شديدة في ثمانية قرون كل ذلك بسبب أننا نستطيع أن نحقق بعض التوافه باستخدام القوات المرتزقة لسنين عديدة، لكن ما تسببه من خسائر يأتي مفاجئة وغريبة ولا تكرر ذلك في إيطاليا التي تحكمت فيها القوات المرتزقة لسنين طويلة، فسوف أبحث عن صورة أدق وأكثر تفصيلاً تمكننا من تناولها ودراسة أصولها وتطورها .

ولابد أن نعرف أن إيطاليا كانت في تلك السنوات الأخيرة مقسمة إلى ولايات صغيرة، عندما بدأت الإمبراطورية في التفكك بسرعة، وأخذ البابا يتمتع بنفوذ أوسع فيما يتعلق بأمور الدنيا وثارت المدن الرئيسية الثلاث على أمرائها المقربين من الإمبراطور وشجعت الكنيسة هذا الأمر حتى تزيد من سلطانها الزمني

وفي مدن أخرى كثيرة أصبح واحداً من السكان أميراً وهكذا سقط غالب إيطاليا تماماً في قبضة الكنيسة وبعض الجمهوريات القليلة ولما كان القساوسة والمواطنون العاديون لا يستطيعون حمل السلاح، فإنهم قد أخذوا في استئجار جنود أجانب، وأول من استخدم هذا الأسلوب من الجندية هو البرجيو دا كومو من رومانا، حيث تربى كل من براتشو و سوفورنسا اللذين كانا أصحاب الكلمة الأولى في إيطاليا على أيدي المرتزقة ثم تبعهم جميع قادة الجيوش في إيطاليا حتى اليوم، وكان من نجاحاتهم أن تغلب شارل على إيطاليا ثم افترسها لويس وطغى فيها فرناندو ويغي ، وأهانها السويسريون وكان أسلوب هؤلاء المرتزقة هو أن يزعزعوا الثقة في المشاة، حيث كان من السهل على أفراد الشعب أن ينتموا للمشاة، وكان المرتزقة دائماً من الفرسان الذين لا وطن لهم ويعيشون على ما يكسبون، وكاد الأمر أن يقتصر تماماً على الفرسان ، فقليل منهم كان يضفي الهيبة ويخلع على الجيش الشرف والمهابة وقد انحدرت الأمور إلى درجة أننا كنا نجد أن هناك ألفين فقط من المشاة في جيش تعداده عشرون ألف جندي

وقد أرسى المرتزقة كل القواعد والتقاليد التي تخلصهم من أي مشقة أو خوف وتقلل من المخاطر التي قد يتعرضون لها حفاظاً على أرواحهم وأرواح جنودهم من أمثلة ذلك أنهم كانوا يأسرون الأسرى دون أن يطلبوا عنهم فدية، ولا يهاجمون التحصينات العسكرية ليلاً، ولم يحفروا الخنادق حول معسكراتهم ولم يحاربوا في الشتاء ولم يضعوا المتاريس لقد أجازت قوانينهم العسكرية لهم كل ذلك، وكان قانوناً مبتكراً يحاول أن يجنبهم المخاطر والمتاعب، فانحدروا بإيطاليا إلى غياهب العبودية ونزلوا بها إلى الحضيض.

حول القوات المعاونة والمختلطة والوطنية:

عندما يطلب أحدهم من جاره أن يأتي للدفاع عنه بقواته، فهذه القوات تسمى قوات معاونة، وهي عديمة النفع مثل المرتزقة، وقد حدث ذلك في العصر الحديث عندما لاحظ جوليوس إخفاق قواته المرتزقة في غزو فيريرا، فلجأ إلى استخدام القوات المعاونة

واتفق مع فرناندو ملك أسبانيا على أن يساعده بقواته وقد تكون هذه القوات جيدة في حد ذاتها، لكنها دائماً مصدر خطر على من يستعيرها لأنها إذا خسرت المعركة فإنك تكون قد هزمت أما إذا كسبتها فإنك ستبقى أسيراً لتلك القوات وعلى الرغم من أن التاريخ القديم مليء بالكثير من هذه الأمثلة فلن أترك هذا المثال وهو مثال البابا جوليوس الثاني لأنه مثال حديث حي في الأذهان وليس هناك سياسة خرقاء قليلة الحكمة مثل السياسة التي اتبعها وذلك لأنه بسبب رغبته في السيطرة على فريرا وضع نفسه بالكامل تحت سيطرة الأجنبي ولكن الحسن الحظ ظهرت قوة ثالثة ساعدت على منعه من جني الثمار المرة لسياسته الفاسدة لأنه عندما هزمت قواته المعاونة في رافينا .نهض السويسريون وردوا المنتصر، وذلك دون أي توقع منه أو من الآخرين، ونجا بذلك من أن يقع في أسر عدوه الذي هرب بالفعل، ولا في أسر قواته المعاونة لأنها هزمت على يد قوات جهة ثالثة كما أن الفلورنسيين الذين كانوا بلا سلاح بالمرة قد استأجروا عشرة آلاف جندي فرنسي للهجوم على بيزا

وهذا يعتبر مخاطرة كبرى لم يمروا بها من قبل خلال سنوات كفاحهم وحشد إمبراطور القسطنطينية عشرة آلاف تركي في اليونان لمواجهة جيرانه، لكنهم لم يرحلوا بعد الحرب، وكانت هذه هي بداية لمرحلة استعباد لليونانيين من جانب من جاءوا لمناصرتهم..

إذن على من لا يريد أن ينتصر أن يعتمد على هذه القوات المعاونة التي تزيد خطورتها قليلاً على خطورة قوات المرتزقة ، فبوجودهم سيكون الخراب شامل، لأنهم متحدون دائماً، وولاؤهم للآخرين وليس لك بينما تحتاج قوات المرتزقة إلى وقت وفرصة مناسبة حتى تتمكن من الإضرار بك، لأنها لا تشكل تكويناً واحداً ولأنها تستلم رواتبها منك ومرتبطة بك وعلى ذلك فإذا جعلت طرفاً ثالثاً هو القائد فإنه لن يستطيع بسرعة أن يتمكن من الحصول على المكانة التي تؤهله لأن يضر مصالحك وخلاصة القول هو :أن قصارى الخطر المتمثل في قوات المرتزقة يكمن في جبنها وتخاذلها عن القتال، لكن القوات المعاونة خطورتها تنبع من شجاعتها..

والأمير المحنك يتجنب دائماً هذين النوعين من القوات وله مصادره الخاصة للقوات، وهو يفضل الهزيمة على يد قواته الخاصة عن النصر على يد قوات الآخرين، فهو لا يعتقد أن هذا الذي تحققه القوات الأجنبية سيكون نصراً حقيقياً ولا أتردد في أن أذكر مثال قيصر بورجيا وأعماله فهذا الدوق دخل إلى رومانا بقوات معاونة وقاد قوات تتكون بالكامل من جنود فرنسيين تمكن بهم من السيطرة على أيمول وفورلي، لكنه لم يأمن جانبها فلجأ إلى قوات المرتزقة لتجنب المزيد من الخطر، فاستأجر الأورسيني والفيتلي، ثم اكتشف بعد ذلك عدم قدرته على الثقة فيهما بعد أن جربهما وتأكد من أنهما غير مخلصين وخطيرين، فبطش بهما واعتمد على جنوده فقط مما زاد من شعبيته زيادة مستمرة ، ولم يصل إلى مثل هذه الشعبية الكبيرة التي وصل إليها إلا عندما لاحظ الجميع أنه الآمر الوحيد لقواته. ولا أريد أن أترك الأمثلة الحديثة من تاريخ إيطاليا، وأريد الآن أن أتحدث عن هيرو سيراكوزا هذا الرجل وبمجرد أن جعله السيراكوزيين على رأس الجيش لاحظ عدم فائدة الجيش المنظم على طريقة قواتنا الإيطالية المأجورة

ولما رأى أن الخلاص منهم أو الاحتفاظ بهم أمر غير مأمون، فقد قطع أوصال هذا الجيش وقسمه إلى أجزاء صغيرة واعتمد منذ ذلك الوقت على خاصة وليس على قوات الآخرين كما أنني سأستشهد أيضاً بقصة رمزية من العهد القديم ، وهي توضح هذه النقطة بدقة فعندما عرض داود نفسه على شاؤول لكي يذهب وينازل جوليات بطل فلسطين فسلحه شاؤول بسلاحه الشخصي كي يشجعه على القتال لكن داود بعد أن جرب السلاح بنفسه رفضه قائلاً : إنه لايستطيع استخدامه بطريقة جيدة، ولذلك فقد فضل أن يواجه عدوه بمقلاعه وخنجره وباختصار فإن استخدام أسلحة الآخرين غير مجد أيضاً وقد تعوقك ، أو تشل حركتك أو تشكل عبئاً عليك إن الملك تشارلز السابع أبوالملك لويس السادس قد اعتقد أن حسن الطالع والشجاعة كانا السبب في تحرير فرنسا من الإنجليز، وقد لاحظ ضرورة التسلح باستخدام قواته الخاصة وأسس نظاماً في مملكته يعتمد على رجال يحملون السلاح وعلى كتائب المشاة وفيما بعد ألغى أبنه الملك لويس كتائب المشاة واستأجر جنوداً سويسريين

وكان هذا هو الخطأ الذي تبعته أخطاء أخرى أدت إلى تعرضه للخطر كما هو واضح الآن لأنه باعتماده على السويسريين ومنحهم هذه السمعة أحبطت فرنساً معنويات كل قواتها الخاصة، فقد تم إلغاء المشاة واضطر الباقي من القوات إلى العمل مع الأجانب لكسب تعاونهم ثم تعودوا على الحرب مع القوات السويسرية ، وظنوا أنهم لا يمكنهم النصر بدونهم وأصبح الفرنسيون في وضع لا يمكنهم من القضاء على السويسريين، ولا يمكنهم من مواجهة الآخرين دون الاعتماد عليهم وبذلك أصبحت القوات الفرنسية من النوع المختلط، جزء منها من المرتزقة ، وجزء من القوات الوطنية وإذا ما تناولناها بصفة عامة فإننا سنجدها أفضل كثيراً من المكونة بالكامل من المرتزقة أو من القوات المعاونة لكنها بالطبع أقل من القوات الوطنية ولعل هذا المثال كافي في حد ذاته، لأن فرنسا كانت ستظل منيعة لو حاولت الإبقاء على نظام تشارلز العسكري أو تطويره لكن الرجال الذين يفتقدون الحكمة عندما يبدأون أمراً جديداً يجنون ثماره الطيبة لا ينتبهون إلى السم الموجود بداخله

لذا فالأمير الذي يخفق في أن يلاحظ مشكلات إمارته في مهدها لا يمكن وصفه إلا بأنه غير حكيم، فالحكمة توهب للقليلين فقط وإذا ما نظرنا إلى أسباب الانهيار الأول للإمبراطورية الرومانية فسنجد أنه كان بسبب استئجار قوات مرتزقة من القوط، لأنه منذ ذلك الوقت بدأت القوات الرومانية في الضعف. وسقطت عن الإمبراطورية جميع مزاياها وذهبت إلى القوط لذلك فإني أنهي حديثي بالتأكيد على أنه لا سلامة لأمير يحتمي بقوات مسلحة غير قواته الوطنية فبدون قوات مسلحة وطنية يتوقف مصيره على حسن الطالع فقط، وسيظل بلا وسيلة يملك بها الدفاع عن نفسه حين تضطرب الأحوال لقد قال الحكماء : لا يوجد ما يزعزع عند البشر أكثر من ولايات تدعمها الشهرة ولا تدعمها قواتها الوطنية وقوات الأمير الوطنية تتكون إما من الرعايا أو من المواطنين، أو من أتباعه هو، وأي قوات أخرى غير هؤلاء هي إما أجير مرتزق أو من القوات المعاونة ومن السهل أن نعرف كيفية إدارة القائد الجيوش الوطنية لو أننا درسنا طرق الأمراء الأربعة الذين ذكرتهم

وذلك إذا ما أخذنا فى الاعتبار الطريقة التي نظم بها فيليب أبو الإسكندر الأكبر وكثير من الحكام والجمهوريات قواتهم وبعد هذه الأمثلة لا توجد حاجة لتناول الموضوع بالتفصيل .

واجبات الأمير فيما يتعلق بالقوات المسلحة:

ينبغي للأمير ألا تكون له غاية أو فكرة سوى الحرب ، ونظامها وطرق تنظيمها، وألا يتخذ لدراسته موضوعاً آخر سواها فهذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يتولى القيادة فهو فن له من المزايا ما يكفي للمحافظة على هؤلاء الذين ولدوا أمراء والإبقاء عليهم في مناصبهم كما أنه يساعد الرجال العاديين على بلوغ مرتبة الإمارة ومن ناحية أخرى يمكننا أن نرى أن الأمراء يفقدون ولاياتهم عندما يفكرون في مظاهر الترف أكثر من تفكيرهم في الأسلحة والسبب الأول لضياع الولايات هو إهمال هذا الفن فهي تكتسب عن طريق إجادة هذا الفن .

وقد توصل فرانشيسكو سفورنسا بحسن تسلحه إلى أن أصبح دوق ميلانو، وقد كان فيما قبل فرداً عادياً وقد انحدر أبناؤه إلى أن أصبحوا أشخاصاً عاديين بعد أن كانوا أمراء ، لابتعادهم عن متاعب الحروب ومشقتها لأن من بين عيوب عدم التسلح الجيد هو أن الفرد يصبح بلا قيمة، وهذا أمر لابد على الأمير أن يتجنبه.

فشتان ما بين رجل مسلح ورجل أعزل، ومهما كان الأمر فلن نرى رجلاً مسلحاً يطيع رجلاً أعزل ، وهو بكامل إرادته، ولن نر أعزل سالماً بين أتباعه المسلحين فمن المستحيل أن يعمل الاثنان معاً في سلام، لأن أحدهما محتقر والآخر كثير الشك.

لهذا فمن المستحل أن يحترم الجنود أميرهم الذي يجهل شئون الحرب، أو أن يكونوا محل ثقته لذلك لابد للأمير ألا ينسى التدريب العسكري، فهو يتدرب في وقت السلم أكثر مما يفعل في وقت الحرب،وهذا ممكن تطبيقه بطريقتين إحداهما عملية والأخرى نظرية ومن الناحية العملية، يجب عليه بجانب تنظيم قواته وتدريبهم أن يشغل نفسه بالصيد باستمرار، فهذا أمر يعود جسده على المشقة والتعب

كما أنه يجعله يدرس طبيعة البلاد في نفس الوقت، فهذه منحدرات الجبال وهنا تنفرج الوديان، وهناك مواقع السيول، ويفهم طبيعة المستنقعات والأنهار، وعليه أن يلم بجميع هذه الأمور إلمامة تامة ولهذا العلم فوائد من ناحيتين أولها أن الإنسان يعرف عن بلاده كل شيء مما يتيح له أن يدافع عنها بصورة أفضل، كما أن معرفته لطبيعة إقليم بلاده توصله إلى طبيعة أقاليم أخرى والأمير الذي لا يملك هذه الصفات يفتقد أول ضروريات القائد فهذه المعارف تعلمه كيف يلقى عدوه، وكيف يقيم المعسكرات ؟ وأين يقيمها ؟ وكيف يضع الخطط للمعارك ؟ وكيف يحاصر المدن ويظفر بها ؟ .

ومن بين الصفات الحميدة التي وصف بها الكتاب فيلوبومين أمير الآخيليين من بين أمراء آخرين، هي أن قالوا عنه : إنه لم يكن يفكر وقت السلام سوى في الشئون العسكرية وكثيراً ما كان يقف بين أصحابه خارج المدينة ويسألهم : إذا كان العدو فوق هذا التل، ووجدنا أنفسنا هنا مع قواتنا، فأي منا ذو وضع مميز؟ وكيف يمكننا الاقتراب من العدو مع الحفاظ على نظامنا؟

وإذا أردنا الانسحاب ماذا يجب أن نفعل ؟ وإذا انسحب العدو فكيف يمكننا أن نتبعه ؟ ثم كان يحدثهم أثناء السير عن كل الاحتمالات التي يمكن أن تحدث للجيش وكان يستمع لآرائهم ويعطيهم رأيه ويؤكده بالبراهين لذلك فهو لم يتعرض لأي حادث لم يكن يتوقعه أثناء قيادته للجيوش بفضل هذه المناقشات الدائمة .

أما فيما يخص تدريب العقل فإن على الأمير أن يقرأ تاريخه ، ويدرس أعمال عظام الرجال، ليرى كيف كانوا يتصرفون في الحروب،ويدرس أسباب انتصاراتهم ومسببات هزائمهم، حتى يستطيع أن يسير على درب المظفرين ويتحاشى أن يلقى هزيمة تماثل هزائم المقهورين منهم وقبل كل شئ يجب عليه أن يسير على درب عظماء الماضي، الذين كانوا يتخذون هم بدورهم من العظماء الذين سبقوهم قدوة لهم فيقال إن الإسكندر الأكبر قد قلد أعمال أخيلس واقتدى اسكيبيو بكورش كما أن كل من يقرأ حياة كورش التي سجلها اكسينوفون سيتضح له كيف أن سكيبيو قد اقتدى بكورش في حياته وقلده بشدة، فتحلى بصفاته من طهر ورقة وعظيم صفات ، وكرم..

وعلى الأمير الحكيم أن ينهج هذا النهج ولا يخلد في زمن السلم إلى الكسب أبداً وأن يصر على الاستفادة من هذه الطريقة بمهارة قدر الإمكان حتى أنه يستطيع أن يكون مستعداً لضربات القدر حين تتغير الأحوال ، وأن تكون له السيادة وقت الشدائد .

حول الشدة واللين هل من الأفضل أن تكون محبوباً، أم مهاباً ؟

وعندما أريد أن أتحدث عن الشدة واللين أقول إنه على الأمير أن يسعى ليوصف بالرحمة وليس الشدة، وأن يحرص على عدم إساءة استخدام الرحمة بأي حال من الأحوال كان قيصر بورجيا يوصف بالشدة، وشدته هي سبب جلب النظام إلى رومانا وتوحيدها، واستتباب الأمن فيها، وضمان ولائها وإذا نظرنا لهذه المسألة نظرة صحيحة ، فإننا نرى أن القيصر كان في الحقيقية أكثر رحمة من الشعب الفلورنسي الذي سمح بتدمير بستويا تجنباً لأن يوصف بالشدة لذا يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يوصف بالشدة

مادامت هذه الشدة من أجل الحفاظ على مواطنيه وولائهم له، لأنه حين يكون شديداً مع عدد قليل جداً من الناس، وهو بذلك أفضل من الأمراء الذين يفرطون في اللين مما يسبب وقوع الاضطرابات وتسيل الدماء ويحدث النهب والسلب وهذه أمور تضر الكثيرين بصفة عامة، لكن تنفيذ حكم الإعدام في عدد قليل من الناس لن يؤذي أحداً غيرهم والأمير حديث العهد بالإمارة فقط هو من في حاجة شديدة دون بقية الأمراء للاشتهار بالشدة ، لأن الولايات الجديدة تعاني دائماً من الأخطار.

حالة بلادي وشئوني مستعصية:

دولة في المهد وعرش مزعزع الأركان هذه الظروف قاسية تمنعني من نشر قواتي في كل اتجاه لأحمي أملاكي بقوة وأحرس شواطئي عن كثب ومع ذلك يجب على الأمير أن يحذر في كل ما يحمله من معتقدات وكل ما يقوم به من أعمال، وألا يظهر بمظهر الجبان الرعديد، وأن يتقدم إلى الأمام بحكمة ولين وألا تجعله الثقة الزائدة يهمل الحذر، وألا تجعله الريبة الزائدة غير محتمل

ومن هنا تبزغ مشكلة المفاضلة بين وجوب أن يكون الأمير محبوباً أكثر منه مهاباً أم مهاباً أكثر منه محبوباً والجواب هو أنه ينبغي على الإنسان أن يكون محبوباً ومهاباً في نفس الوقت ولما كان من الصعوبة الحفاظ على الصفتين معاً، فإن المهابة في هذه الحالة أفضل بكثير إذا كنا لا نستطيع إيجاد الصفتين معاً لأنه من الممكن أن نقول عن عامة البشر إنهم ينكرون المعروف، ويحبون المراوغة في الحديث ومراءين،حريصون على تجنب الخطر، راغبون في الكسب، هم أعوانك طالما استفادوا منك، وهم يفدونك بالدم وما يملكون وبحياتهم وولدهم، حين لا يكون هناك داع لذلك، ولكن حين تقترب الأخطار ينقلبون عليك، إن الأمير الذي يعتمد على وعود رعاياه يهلك إلا إذا تهيأ بالمعدات الكافية، لأن الصداقة التي يمكن شراءها غير مأمونة، ولن تعمل لصالحك عند الضرورة إن البشر يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم في إيذاء من يهابون وذلك لأن الحب مرتبط بسلسلة من الارتباطات التي تتفكك عندما تؤدي غرضها بسبب أنانية الناس لكن استخدام المهابة والخوف من العقاب طريقة صحيحة لا تفشل أبداً .

ما زلت أقول : إنه على الأمير أن يجعل نفسه مهاباً بطريقة تجعله إن لم يحصل على الحب، فإنه يتجنب الكراهية على أي حال لأن المهابة وعدم وجود الكراهية من الممكن أن يجتمعا معاً ويستطيع تحقيق ذلك كل من يمتنع عن التدخل في أمور أملاك رعاياه ونسائهم وعليه ألا يأمر بإعدام أي شخص إلا بعد التأكد من المبررات الكافية لذلك ويوضح أسبابه لكنه يجب عليه قبل كل شيء الامتناع عن الاستيلاء على أملاك غيره، لأن الإنسان قد ينسى موت أبيه بسهولة عن نسيانه ضياع ميراثه كما أنه لا حاجة للأمير أن يوجد الذرائع لاغتصاب ملكيات الغير فمن يعيش على النهب سيجد دائما سبب يغتصب به متاع الآخرين بينما مسببات الإعدام أقل بكثير وتزول سريعاً .

لكن عندما يكون الأمير بين أفراد جيشه ومعه عدد كبير من الجنود

فإنه يتحتم عليه أن يعرف بالشدة، لأنه بدون هذه السمعة لن يحافظ على وحدة الجيش أو يؤدي أي مهمة إن من بين منجزات هانيبال الجديرة بالذكر أنه على الرغم من وجود جيشه العرمرم ووجود الجنود فيه من دول كثيرة ومحاربته في دول أجنبية

إلا أنه لم يقع بينهم أي مشكلات أو يثوروا ضد الأمير سواء كان ذلك في السراء أم في الضراء وهذا لا يرجع إلى أي سبب سوى شدة هانيبال التي جعلته بالإضافة إلى فضائله الأخرى التي لا تحصى عظيماً بين جنوده ومهاباً باستمرار وما كانت قدراته كافية لتحقيق هذا الأثر لو لم يكن شديداً والكتاب الذين لا يفكرون جيداً يعجبون بأعماله جهة، ومن جهة أخرى يلومونه على شدته وهي السبب الرئيس لإنجاز هذه الأعمال .

ومن الممكن أن نلاحظ أن بقية خصاله لم تكن كافية وحدها في حالة سكيبو (وهو مشهور ليس فقط في عصره، لكن ذكراه باقية في كل العصور) فقد ثارت عليه قواته في أسبانيا، ولم يكن لذلك سبب آخر سوى شفقته المفرطة ، مما أتاح لجنوده قدراً من الفوضى ، لا يتفق مع الحياة العسكرية وقد لامه فابيوس ماكسيموس على ذلك ، وأطلق عليه لقب مفسد الجندية الرومانية فقد دمر أحد ضباط سكيبو لوكرا فلم يقتص منه لذلك، ولم يعاقبه ، والسبب ببساطة هو طبيعته المتساهلة لدرجة أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ أراد أن يلتمس له العذر

فقال إن هناك أناساً كثيرين يعرفون كيف يتجنبون الأخطاء ،أكثر من معرفتهم بكيفية تصحيح أخطاء الآخرين وكان من الممكن لهذا الاستعداد أن يقلل من شهرة سكيبو لو استمر على ذلك في عصر الإمبراطورية، لكن في ظل مجلس النواب لم تختف هذه الصفة فقط ولكنها كانت سبباً لشهرته في نفس الوقت.

لذلك فإني أختم حديثي عن مهابة الأمير ، وحب الناس له فأقول إن الناس يحبون بمحض إرادتهم الحرة، لكنهم يخافون حسب رغبة الأمير، وعلى الأمير العاقل أن يعتمد على ما له من سلطان ، وأن يسعى لتجنب ما يسبب له الكراهية المدمرة.

كيف يصون الأمراء عهودهم ؟

_كلنا نعرف مدى الثناء الذي يناله الأمير الذي يحفظ عهده ويحيا حياة مستقيمة، دون مكر لكن تجارب عصرنا هذا تدل على أن أولئك الأمراء الذين حققوا أعمالاً عظيمة هم من لم يصن العهد إلا قليلاً .

وهم من استطاع أن يؤثر على العقل بما له من مكر كما استطاعوا التغلب على من جعلوا الأمانة هادية ويجب أن تعلم أن هناك طريقتين للقتال، واحدة لها قواعد وقوانين والأخرى تعتمد على القوة فقط الطريقة الأولى للبشر، أما الثانية فللحيوانات المفترسة، ولما كانت الأولى غير كافية في أغلب الأحوال، فأن المرء كان يلجأ غالباً للطريقة الثانية لهذا فمن الضروري للأمير أن يعرف حق المعرفة كيف يستخدم كلتا الطريقتين وقد علم الكتاب القدامى أمراءهم ذلك وأوحوا لهم به فهم يرون أن أخيليس وغيره الكثير من الأمراء القدامى قد أرسلوا إلى كيرون ليربيهم ويعلمهم بطريقته وهم يقصدون من صورة هذا المعلم ذى نصف البشر ، ونصف الحيوان أن يوضحوا أنه على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطريقتين معاً، فواحدة منهما لن تدوم بدون الأخرى..

لهذا السبب كان الأمير مضطراً إلى أن يعلم جيداً كيف يتصرف كالحيوان، فهو يقلد الثعلب والأسد، لكن الأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ والثعلب غير قادر على مواجهة الذئاب على المرء

إذن أن يكون ثعلباً ليواجه الفخاخ ويكون أيضاً أسداً ليخيف الذئاب ومن يريد أن يكون أسداً فقط لا يفهم الأمور جيداً فعلى الأمير إذن ألا يحفظ عهداً يكون الوفاء به ضد مصلحته، وألا يستمر في الوفاء بوعد انتهت أسباب الارتباط به وقد يكون هذا المبدأ مبدأ شريراً لكن هذا يصدق فقط في حالة ما إذا كان جميع البشر من الأخيار لكن إذا كانوا جميعاً من الأشرار ولن يرعوا عهودهم معك، فهذا يسمح لك أن تكون في حل من عهودهم فلم يفشل أي حاكم في اختلاق الأعذار المقبولة التي يبرر بها عدم الوفاء بالعهد وهناك عدد لا حصر له من الأمثلة في العصر الحديث تؤكد ذلك، وتوضح أن هناك وعودة كثيرة قد بطلت بسبب عدم وفاء الأمراء بها كما توضح لنا أن الذين استطاعوا تقليد الثعلب بمهارة حققوا أفضل نجاح ولكن لابد لك أن تكون قادراً على إخفاء هذه الصفة بمهارة، وتستطيع التمويه والخداع حيث إن البسطاء من الناس على استعداد لقبول أي أمر واقع، ومن يخدعهم سيجد من بينهم من يقبل أن ينخدع بسهولة.

ولن أذكر سوى مثال حديث واحد، حيث لم يفعل الإسكندر السادس شيئاً سوى التغرير بالناس، فلم يفكر بغير ذلك، ودائماً ما واتته الفرصة لتحقيقه فلم يتفوق عليه أحد في قدرته على توفير الضمانات، وتأكيد الأمور بالحلف الكاذب، ولم يتفوق عليه أحد في عدم الوفاء بالعهد، وكانت حيله دائماً موفقة تحت أي ظروف، لأنه كان يفهم هذا الأمر جيداً..

وليس من الضروري للأمير أن تكون لديه كل الخصال التي سبق ذكرها، على أنه من الضروري أن يبدو عليه أنه يتصف بها وأستطيع أن أقول : إن المحافظة على التحلي بهذه الصفات ، والحفاظ عليها أمر خطير، لكنه أمر مفيد على أي حال وعلى ذلك فمن المفيد أن يبدو الأمير رحيماً ، وفياً حلو الصفات ، صادقاً ، متديناً ، وأن يكون كذلك فعلاً ، وليس مظهراً فقط، ولكن يجب أن يتهيأ عقلك لكي تتحول إلى أضداد هذه الصفات عند الحاجة ويجب أن يكون من المفهوم أن الأمير حديث العهد بالإمارة لايمكنه مراعاة كل ما يعتبره الناس خيراً.

لأنه في سبيله للحفاظ على الدولة قد يضطر للقيام بأعمال ضد الوفاء والإحسان والصفات الحسنة والدين لذلك فعليه أن يعد عقله للتكيف مع أي ريح قد تهب عليه ، ومع تغييرات المستقبل كما يجب عليه أن لا يبتعد عن الخير قدر الإمكان مع قدرته على ارتكاب الشرور إذا اضطر إليها .

وعلى الأمير أن يصون لسانه فلا ينطق إلا بما يسبغ عليه من الصفات الخمس الطيبة السابق ذكرهاولا بد له أن يبدو رحيماً وصادقاً ومستقيماً ومتديناً أمام من يراه ويسمعه وهذه الصفة الأخيرة ضرورية جدأ لأن الناس يحكمون على ما يرونه بأعينهم ، وليس على ما يدركونه، فكلنا يستطيع الرؤية ، لكن قلة قليلة منا تستطيع أن تدرك واقع الحال الذي أنت عليه ، وهي غير قادرة على مواجهة الكثرة التي تحميها مهابة الأمير وفي كافة أعمال البشر وخاصة الأمراء فإن الغاية تبرر الوسيلة، وهذا حكم لا يمكن نقضه ؛ فعلى الأمير إذن أن يهدف للفوز بالولاية والمحافظة عليها، وسوف يحكم الجميع على وسائله بأنها شريفة ويمدحونها أيضاً

فعامة الناس يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجي وهذا العالم لا يتكون إلا من هؤلاء العامة أما غير السذج فهم قلة تنعزل حين تجد الكثرة مجتمعة حول الأمير وهناك أمير في عصرنا كان كل ما يفعله هو الدعوة للسلام والوفاء ، وهو في الحقيقة عدو لهما، ولو أنه اهتم بأي منهما في مناسبات عديدة لضاعت منه دولته وخسر اسمه.

كيف نتجنب الاحتقار والكراهية ؟

يجب على الأمير،أن يجتنب كل ما يجعل الناس يكرهونه أو يحتقرونه ولا يكون قد قام بدوره إلا حين يوفق في هذا الأمر ولن يكون في بقية الرذائل أي خطر وأول ما يجعل الأمير مكروهاً هو أن يكون جشع، وأن يغتصب ممتلكات رعاياه أو نساءهم، وهذا هو ما يجب عليه أن يمتنع عنه ومادام الأمير لا يعتدي على ملكية عامة الناس أو نساءهم، فإنهم سيعيشون في رضى، ولن يكون أمامه سوى محاربة مطامع قلة من الناس الذين يمكن السيطرة عليهم بطرق عديدة

ويكون الأمير محتقراً حين يعتقد الناس بأنه متقلب وطائش ومخنث وجبان وضعيف العزيمة وهذا يجب تجنبه كما يتجنب القبطان صخرة قاتلة ومن واجبه أن يحافظ على ظهور أعماله بصورة تعكس العظمة والقدرة ، والمجد، وألا يقبل النقض فيما يحكم به بين رعاياه، ويتمسك بما يصدر من قرارات حتى لا يفكر إنسان في أن يضلله أو يخدعه .

إن الأمير الذي يخلق هذا الرأي عن نفسه عند الناس يحظى بسمعة عظيمة ومن الصعب أن يتآمر عليه أي إنسان ولن يعتدى عليه أي معتد بسهولة، حيث إنه يعرف أنه قدير، تحترمه رعيته ويجب على الأمير أن يخشى شيئين : الأول داخلي له علاقة بالرعايا، والثاني خارجي له علاقة بالقوى الأجنبية يستطيع الأمير أن يحمي نفسه من الأمر الثاني بالأسلحة الجيدة والأصدقاء المخلصين، وهؤلاء الأصدقاء يتوفرون بسهولة مادام يملك الأسلحة الجيدة أما الأحوال الداخلية، فإنها ستظل هادئة دائماً ما لم تثيرها مؤامرة فتضطرب الأحوال، ولم يحدث اضطراب في الخارج وحتى إذا افترضنا أن قوات أجنبية سعت إلى الهجوم على الأمير، فإنه سيتحمل دائماً

ويتمكن من مواجهة كل الصعاب،وذلك مثلما حدث مع نابيس الإسبرطي أما بالنسبة للرعايا، فيجب عليه أن يحتاط من تآمرهم عليه سراً ، وذلك إذا كانت رعيته لا تعمل وفقاً لنصائح أجنبية وهذا من الممكن له تجنبه جيداً بالبعد عن أن يكون محتقراً أو مكروهاً، وذلك ببقاء الشعب راضياً عنه، ومن الضروري تحقيق هذا الأمر كما أن أفضل علاج للأمير ضد أي مؤامرات هو حب الشعب له لأن من يتآمر يعتقد أنه سيرضي الشعب إذا اغتال الأمير لكنه لو علم أنه سيثير جموع المواطنين بفعلته، فإنه سيتجنب تلك الفعلة لأنه سيواجه بذلك مشكلات لا تعد ولا تحصى وهذا ما يجعل كثيراً من المؤامرات تقع دون أن تنجح، وكل متآمر لا يستطيع العمل بمفرده، ولن يجد له شريكاً سوى من الناقمين، والناقم يكتشف مقصدك بسرعة عندما تتبين له نية المتآمر، فيأمل تحقيق فائدة من وراء اتباعه لك، لكنه من ناحية أخرى يرى فيما تعرضه عليه أمراً محفوفاً بالمخاطر، ولابد لكي يستجيب لك أن يكون واحداً من اثنين: إما صديق مخلص لك أو عدو شديد العداوة للأمير

ولتوضيح هذا الأمر بايجاز أقول: إن المتأمر لن يجد حوله سوى الخوف والحقد والشك والعقاب أما الأمير فهو محاط بقوة الحكم والقوانين والأعوان الذين يحمونه وولاية تدافع عنه وإذا ما أضفنا إلى ذلك إرادة الشعب المحيط به، عندئذ يستحيل أن يقدم أي إنسان على أن يتآمر عليه كما أن المتآمر يشعر بالخوف قبل تنفيذ المؤامرة، وسيشعر بالخوف أيضاً بعد إنجازها لأن الشعب سيكون عدواً له في هذه الحالة، ولا ملاذ له منه .

ولدينا العديد من الأمثلة على ذلك، لقد تآمر الكنسكي على هانيبال بنتوفلي أمير بولونيا، وهو جد هانيبال الحالي ولم يكن له أي أقارب سوى جيوفاني وكان لا يزال طفلاً في ذلك الوقت ولكن بعد الاغتيال ثار الشعب وقتل الكنسي بسبب السيرة الطيبة التي تتمتع بها عائلة بنتيفولي في ذلك الوقت وقد كانت عائلة عظيمة لدرجة أن أهل بولونيا حين عرفوا أن هناك فرداً من أسرة بنتيفولي يعيش في فلورنسا، وكان يعتقد أنه ابن حداد، ذهبوا إليه ليحضروه، ونصبوه حاكماً على المدينة، وظل يحكمها حتى أصبح جيوفاني شاباً وفي سن مناسبة لتولي الحكم، حيث لم يكن هناك خليفة آخر لهانيبال سواه..

وعلى ذلك فإن على الأمير ألا يهتم بالمؤامرات إذا كان الشعب يناصره ويحبه، ولكن إذا كان يكرهه ويعاديه ، فعليه أن يخاف من كل فرد يخشى كل شيء إن الولايات التي تقوم على نظام جيد وأمراء ذوي عقل أولي همة، لا يجعلون النبلاء يضيقون بهم ، ويجعلون الشعب راضياً عنهم، ويحافظون على هذا الرضا وهذا من أهم الأمور التي يجب أن يهتم الأمير بها..

وفرنسا من الممالك التي تتمتع بنظام حكم جيد في عصرنا الحالي، ففيها عدد لا يحصى من المؤسسات الصالحة ، وهي ما يعتمد عليه الملك لسلامته وحريته وأول هذه المؤسسات هو البرلمان بما له من صلاحيات، لأن من أقام هذه المملكة يعرف مطامع علية القوم ، وغطرستهم ، ويعرف أنه من الضروري أن يكبح جماحهم وهو يعرف الكراهية التي يشعر بها الشعب تجاه علية القوم، وهي تقوم على الخوف، وحين أراد أن يشعرهم بالأمن لم يشأ أن يجعل هذا الأمر من مهام الملك الخاصة حتى يجنبه سخط الشعب لو أنه جامل النبلاء، ولذلك أنشأ حكماً ثالثاً البرلمان يكبح جماح النبلاء دائماً

ويجامل البسطاء وما كان من الممكن فعل ما هو أفضل من ذلك، أو الاحتياط لسلامة الملك والملكة بطريقة تتفوق على ذلك، وختاماً أقول :إنه على الأمير أن يحترم نبلاء ولايته، لكن عليه أيضاً ألا يجعل عامة الشعب يعادونه .

وقد يبدو للبعض أننا عندما نتناول حياة كثير من الأباطرة الرومان أنها تعارض رأيي، فبعضهم قد عاش حياة النبلاء وأظهروا قوة عظيمة، ومع ذلك فقدوا إمبراطورياتهم، وقتلهم من تآمر عليهم من رعاياهم على أن يفعلوا ما لا يمكن للشعب أن يفعله. والآن وفيما عدا الأتراك ومماليك مصر، فإن إرضاء الشعب أكثر من الجنود أمر يلتزم به الأمراء كافة لأن الشعب يستطيع أن يفعل ما لا يفعله الجنود وأنا استثني سلطان الأتراك من ذلك لأنه يحتفظ باثني عشر ألفا من المشاة حوله دائماً، وخمسة عشر ألفاً من الفرسان، وعليهم تتوقف سلامة المملكة وقوتها وكان من الضروري بالنسبة له أن يؤجل أي شيء آخر حتى يتأكد من ولاء هؤلاء جميعاً له وكذلك الحال بالنسبة للمماليك

فالسلطان ملزم بالحفاظ على ود الجنود ، دون النظر إلى الشعب، ويمكننا أن نلاحظ أن ولاية السلطان تختلف عن ولايات الأمراء الآخرين فهي تشبه البابوية المسيحية، فهي لا يمكن أن تسمي ولاية ملكية وراثية، ولا هي مملكة حديثة العهد، فأبناء الأمير الذي يرحل لا يرثونه ولكن يرثه خليفته في الحكم ويختاره أصحاب النفوذ وهو نظام قديم ولا يمكن اعتباره مملكة حديثة العهد، لأنه يخلو من الصعاب التي توجد في الإمارات الجديدة .

حول ما إذا كانت القلاع والأشياء الأخرى التي يلوذ بها الأمراء مفيدة أم ضارة :

لقد تعمد بعض الأمراء نزع السلاح من مواطنيهم من أجل ضمان سلامة حكمهم، بينما حافظ غيرهم على ما يتبعه من ولايات مقسمة إلى أجزاء كما كانت وهناك من سعى إلى إثارة العداوة فيما بينها، ومنهم من أراد أن يكسب أولئك الذين شكوا فيهم في بداية الحكم إلى جانبهم

وبعضهم شيد الحصون والآخر دمرها وهدمها، وإن كان الإنسان لا يستطيع أن يحكم حكماً قاطعاً في هذه الأمور دون أن يتعمق في تفاصيل حياة الولاية التي سيتحدث عنها لذلك سنتحدث عنها بطريقة عامة قدر الإمكان .

لم يشتهر أي أمير بأنه ينزع سلاح رعاياه، بل إنه على العكس من ذلك كان يسلحهم إن وجدهم عزء وأنت حين تسلحهم تكون هذه الأسلحة ملكاً لك وسيخلص لك من كان في قلبك شك من ناحيته، ويستمر المخلصون على ولائهم، وسيتحول من كان مجرد واحد من الرعية إلى واحد من الأنصار، ولما كان من المستحيل تسليح الرعية بالكامل، لكنك عندما تسلح البعض منهم تستطيع أن تعامل الباقين معاملة بأمان أكثر، وهذا الاختلاف في المعاملة يجعل رجالك أكثر ولاء لك كما أن الآخرين سيلتمسون لك العذر عندما يجدون أن من يقومون بالواجبات الخطرة هم من ينالون تقديراً أكبر أما إذا نزعت منهم السلاح ، فإنك تسيء بذلك إليهم، وتبدو بمظهر غير الواثق منهم، إما لأنهم من الجبناء أو لقلة ثقتك فيهم.

وكل من هذين التفسيرين يولد كراهيتك في نفوسهم وبما أنك لا تستطيع أن تبقى أعزل بدون سلاح، فإنك ستضطر إلى استئجار الجنود بمبالغ عالية وإذا افترضنا أن هؤلاء الجنود سيكونون صالحين، فإنهم لن يكونوا قادرين على الدفاع عنك ضد أعداء أقوياء ، وضد رعايا مشكوك في أمرهم، لذلك فإن رعايا الأمير الجديد في مملكة جديدة يكونوا دائماً مسلحين حينما يستولى على الإمارة، والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك .

ولكن الأمير، عندما يكسب ولاية جديدة ويضمها إلى ولايته القديمة، فمن الضروري أن ينزع سلاح هذه الولاية عدا من وقف بجانبه وناصره عند الاستيلاء عليها، وحتى هؤلاء يجب على الأمير أن ينتهز الفرصة والوقت المناسب ، ويجعل منهم ضعفاء ومخنثين، وأن يهيئ كل شيء ليجعل جميع أسلحة الولاية الجيدة في أيدي الجنود الذين يعيشون بالقرب منه في ولايته القديمة .

إن أجدادنا والذين يعتبرون من الحكماء اعتادوا أن يقولوا : الأحزاب ضرورة للسيطرة على بستويا ، والقلاع وسيلة للسيطرة على بيزا

وهم قد أثاروا الخلافات في بعض المدن التابعة لهم حتى يستطيعوا حكمها بسهولة وهذا أمر صالح في ذلك الوقت الذي كانت فيه إيطاليا تنافس القوى الكبيرة، ولكنه لا يبدو لي مناسباً في الوقت الحاضر، لاعتقادي بأن الأحزاب التي تنشأ بهذه الطريقة لا تأتي بأي فائدة .

وأعتقد أيضاً أن البنادقة قد رحبوا بالتفرقة بين كتلتي الجولف والجبلين في المدن الخاضعة لهم ومع أنهم لم يسمحوا لهم بإراقة الدماء إلا أنهم شجعوا وجود الخلافات لأن أبناء هذه المدن حين ينشغلون بخصوماتهم الخاصة لا يتحركون ضد البنادقة لكنهم لم يصلوا إلى أي فائدة من ذلك على أي حال، فكما رأينا أنه بعد الهزيمة في فايلا تشجعت جماعة من المواطنين وقامت فجأة بالاستيلاء على كامل الولاية .

وما من شك في أن الأمراء يصبحون عظماء حين يتغلبون على ما يواجهونه من معارضة ومن صعاب مما جعل البعض يظن أنه على الأمير العاقل أن يثير العداء بين الرعية بدهاء حين تسنح الفرصة، حتى تزيد عظمته حين يسيطر عليه ويكبحهم..

إن الأمراء خاصة حديثي العهد منهم قد وجدوا من هؤلاء الذين كانوا ينظرون إليهم بشك في بداية عهدهم إخلاصاً أكثر مما وجدوه فيمن كانوا موضع ثقتهم منذ البداية وقد حكم بانولفوبتروتشي ولايته بمن شك فيهم أكثر من حكمه لها بغيرهم ولكننا لن نسهب في هذا الموضوع ولكني أقول أن الأمير من الممكن أن يكسب ود من كانوا أعداءه عند بداية حكمه بسهولة وسيخلصون له أكثر من غيرهم لأنهم يدركون أن عليهم أن يبطلوا بأعمالهم ذلك الرأي السيئ الذي سبق للأمير أن كونه عنهم وبهذا فإن الأمير سيستفيد منهم أكثر من هؤلاء الذين اعتادوا خدمته فأهملوها لاطمئنانهم إليه..

ولكني أغفل ذكر الأمير الذي أخذ ولاية جديدة بعد أن ساعده أهلها سرأ، لأن الموضوع يتطلب ذلك، وأرى أن عليه أن يضع في اعتباره تلك الدوافع التي أدت بهم إلى ذلك فإن لم يكن ذلك بسبب حبهم له، وإنما فقط بسبب غضبهم من أوضاع الولاية السابقة، فإنه سيواجه متاعب كبيرة ومشكلات كثيرة، لأن رضاهم عنه من المستحيل..

وحين نتناول أسباب الأمثلة التي استخرجتها من الأزمنة الحديثة والقديمة نرى أن اكتساب صداقة الذين كانوا غير راضين عنك في النظام القديم، ومن كانوا أعداء لنا في بداية العهد، أسهل كثيراً من كسب صداقة من ساعدوا الأمير على الاستحواذ على ولاية جديدة لسخطهم على النظام القديم .

وقد تعود الأمراء على إقامة القلاع حتى يستطيعوا السيطرة على ولاياتهم بسلام، وهي تعتبر وسائل دفاعية قوية ضد من ينوي لهم شراً، كما أنها ملاجئ آمنة عند حدوث هجوم مفاجئ وأنا مع هذه الطريقة التي استخدمت منذ القدم إلا أننا نرى أن نيقولا فيتللي يهدم في عصرنا الحالي قلعتين في سيتا دي كاستللو لكي يحتفظ بالولاية ، كما أن دوق أوربينو جيدو بالدو يدمر كافة الحصون في أراضية التي طرده منها قيصر بورجيا لكنه حين عاد إليها وجد أن ضياع بلاده مرة أخرى وهي بدون حصون أصعب مما لو كانت لازالت باقية وعلى هذا فإن فائدة القلاع تتوقف على الفترة الزمنية التي تمر بها وهي إن كانت ذات قيمة جيدة في وقت ما، نجدها مضرة في وقت آخر

وعلى ذلك يمكننا أن نتناول الأمر بهذه الطريقة : على الأمير الذي يخشى شعبه أكثر من خشيته للأجانب أن يقيم القلاع، وعلى من يخشى الأجانب أكثر من خشيته لشعبه أن يظل بدونها إن قلعة ميلانو قد تسببت وسوف تسبب لعائلة سقورتسا متاعب تفوق أي اضطراب آخر شهدته هذه الولاية لهذا فإن أفضل الحصون هو ما يقوم على حب الشعب لأميرهم فإنك إذا ملكت الحصون القوية فهي لن تحميك من شعب يكرهك، إنه سيشهر السلاح في وجهك ولن يكون في حاجة لأجانب يساعدونه ولم نر أي مثل في عصرنا الحاضر لحصون استفاد منها الحاكم فيما عدا الكونتيسة فورلي عندما مات زوجها الكونت جيرولامو فقد استطاعت بفضل حصنها أن تفر إليه من الشعب ،وتنتظر المساعدة من ميلانو من ثم تستعيد الولاية وقد كانت الظروف في ذلك الوقت لم تسمح للأجنبي بأن يساعد الشعب وفيما بعد لم تستفد الكونتيسة مما تملك من قلاع أي فائدة، وذلك حين هاجمها قيصر بورجيا وكان شعبها يعاديها فتحالف مع الأجنبي وقد كان من الأفضل للكونتيسة أن تكون محبوبة من شعبها بدلاً من أن تملك القلاع والحصون

وعلى ذلك فإني أمتدح من يقيم الحصون ويستخدمها استخداماً صحيحاً في الوقت المناسب ، كما أمتدح من لا يقيمها عندما يكون في إقامتها خطر عليه وألوم كل إنسان يعتمد على القلاع والحصون ويثق بها ولا يهتم كثيراً بكراهية الشعب له .

ماذا يفعل الأميركي ينال الشهرة ؟

لا شئ يؤدي إلى احترام الأمير بشدة سوى أعماله العظيمة، والأعمال غير العادية بصفة عامة. وفي عصرنا هذا لدينا مثال وهو فريناند ملك أرجون، وملك أسبانيا الحالي. ويمكننا أن نسميه أميرا حديث العهد، فقد أصبح أول ملك في العهد المسيحي، بعد أن كان ملكا ضعيفا، وذلك بعدما اكتسب الشهرة والمجد. وإذا ما تناولنا أعماله كلها فسنجدها كلها أعمالا عظيمة جدا، وبعضها خارق للعادة. فقد هاجم غرناطة في بداية عهده، وكانت هذه الحملة أساسا لمجده. فقد عمل ذلك وهو لا يزال خالي البال، لا يخشى تدخل أحد.

كما جعل عقول بارونات كاستيل تنشغل بهذه الحملة، فلم يخطر ببالهم تجديد الأوضاع السياسية، ولم ينتبهوا إلى أنه بذلك قد نال شهرة وسلطانا على حسابهم. كما أنه صان جيشه بأموال الكنيسة والشعب، ومن خلال تلك الحرب الطويلة وضع أسس لقوته العسكرية التي اشتهر بها فيما بعد. بالإضافة إلى استخدامه للشدة الدينية ، مما مكنه من أن يقوم بحملات أعظم من الحملة السابقة، فقضى على المغاربة قضاء مبرمة ، وطردهم من مملكته، كل ذلك تحت شعار الدين. وهو مثال سياسي نادر، حيث هاجم أفريقيا بنفس الطريقة أيضا، كما قام بحملته على إيطاليا، وعلى فرنسا فيما بعد .وكان يصطنع مشكلات كبيرة ألهت عنه الرعية ، وجعلتهم مشغولين بصفة دائمة.
وقد نتجت هذه المشكلات عن بعضها البعض فلم يعط الناس فرصة للاستقرارما والعمل ضده .

ويستفيد الأمير أيضا فائدة كبرى عندما تكون له أعمال عظيمة وبارزة في الإدارة الداخلية، مثل ما ينسب إلى برنابو الميلاني. ومن الناحية الدينية يجب على الأمير البحث عن طريقة مناسبة للثواب والعقاب

وهو أمر كثر الحديث عنه، وهما يأتيان عندما يقوم الفرد بعمل فز سواء كان حيرة أم شرا. وعلى الأمير أيضا أن يسعى في كل الأعمال التي تكسبه شهرة بالعظمة والتميز .

ويحترم الأمير بشدة إذا كان مخلصا في الصداقة أو شديد العداء، وذلك حين يعلن بصراحة تامة تأييده أو عداءه لفرد ما. وهي سياسة اكثر نفعا له من أن يبدو محايدة دائما. فإذا بدأ القتال بين دولتين متجاورتين، فقد يخشى انتصار أي منهما، أو لا يخشاه. وأيا كانت الحالة من الأفضل لك أن تعلن موقفك بوضوح، وتعلن الحرب. فإذا لم يتضح موقفك، فإنك ستقع فريسة للمنتصر في الحالة الأولى. وهذا يرضي الدولة المنتصرة ويقنعها. ولن تستطيع تبرير موقفك أو الدفاع عن نفسك، ولن يقبل أحد مقابلتك. فكل منتصر لا يريد أصدقاء مشكوك في أمرهم، لم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة .كما أن المقهور لن يقابلك أيضا لأنك لم تستل سلاحك وتخاطر بنفسك من أجل قضيته. لقد أرسل الأيتوليون أنتيوكس إلى بلاد الإغريق لطرد الرومانيين منها، كما أرسلوا الخطباء إلى الآخيين الذين كانوا أصدقاء الرومانيين

لتشجيعهم على البقاء على الحياد. ومن ناحية أخرى، طلب منهم الرومانيون أن يحملوا السلاح ويعاونوهم. وعرض الأمر على مجلس الآخيين للبحث، وسعي سفير أنتيوكس، ورد السفير الروماني على ذلك بقوله : إن ما يقال عنه خيرا لدولتكم وذو فائدة لها، هو أبعد شئ عن الحقيقة، لأنكم إن لم تتدخلوا في الحرب ستصبحون فريسة للمنتصر فيها، ولن يذكر لكم أي فضل أو تنالوا أي ذكر .

وفي أغلب الأحوال يطلب منك صديقك أن تفصح عن موقفك وتشهر السلاح، أما من هو ليس صديقا لك فسيطلب منك البقاء على الحياد. والأمراء ضعاف الهمة عادة ما يفضلون الحياد تحاشية للأخطار، وهي طريقة غالبا ما تدمرهم. لكن الأمير حين يعلن عن موقفه صراحة ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضممت إليه ، فسيظل يدين لك بالمعروف حتى لو كان قويا وبقيت أنت تحت سلطانه، وستستمر الصداقة بينكما بعد أن بدأت. ولن تصل خيانة الرجال بأي حال من الأحوال إلى أن يبطشوا بك وأنت من أحسنت إليهم في يوم من الأيام.

بالإضافة إلى أنه يندر أن يتم النصر بصورة تجعل المنتصر يتحلل من كل أعمال الخير، وخاصة العدل. أما إذا هزم حليفك، فيمكنك الاعتماد عليه وسيساعدك مادام قادرا على ذلك وتشتركان في قدر واحد قد يصعد نجمه من جديد. أما في الحالة الثانية التي لا يخشى فيها أي من المتحاربين من أي ناحية، يظل من الأفضل بالنسبة لك أن تناصر أحدهما، فأنت تسعى إلى تدمير واحد منهم بمساعدة من كان ينبغي له أن ينقذه لو كان عاقلا، فإن انتصر - وهذا مضمون بمساعدتك له - فإنه يظل طوع أمرك .

وهنا يتحتم علينا أن نلحظ أنه من واجب الأمير أن يحذر التحالف مع من هو أقوى منه حتى يعتدي على غيره، إلا إذا كان مضطرا لذلك كما سبق أن أوضحنا، لأنه إذا ظفر هذا الحليف بالنصر ، فستظل أنت تحت سلطانه . ومن واجب الأمراء أن يتجنبوا أن يكونوا تحت إمرة وإرادة غيرهم قدر المستطاع لقد اتحد البنادقة مع دوق ميلانو رغم أنه كان باستطاعتهم تجنب هذا التحالف الذي أدى إلى تدميرهم.

ولكن إذا لم يستطع الأمير تجنب ذلك مثلما حدث في حالة الفلورنسيين عندما ذهب البابا وأسبانيا بجيوشهما للهجوم على الباردیا، وينبغي للأمير حينئذ أن يتحالف مع الآخرين للأسباب السابق ذكرها. ولا يجب أن يدع الحكومة تعتقد أنها قادرة على السير بسياسة واحدة صحيحة، ولكن من الأجدر بنا أن نجعلها تعتقد أن كل السياسات مشكوك فيها، وهذا الأمر من طبيعة كل شيء .فالإنسان عندما يحاول تجنب صعوبة ما دون الاصطدام بغيرها، ومن الحكمة أن نكون قادرين على معرفة طبيعة الصعاب التي تواجهنا وتحديد أقلها ضررة .

وعلى الأمير أيضا أن يكرم الموهوبين ويميز القادرين، ويحمي البارزين في كل فن، بالإضافة إلى أنه من واجبه أن يحث مواطنيه على ممارسة العمل وهم مطمئنو البال، سواء كان هذا العمل تجارة أو زراعة أو صناعة يعمل بها الناس. وذلك حتى لا يحجم الناس عن الإبداع فيما يفعلون خوفا من المصادرة، أو أن يحجم البعض الآخر عن بدء صناعة خوفا من الضرائب، وينبغي مكافأة كل من يقوم بهذه الأعمال.

وكذلك كل من يسعى لتحسين أحوال المدينة ، أو الولاية بأي طريقة. بالإضافة إلى أنه يجب عليه أن يلهي شعبه بالمهرجانات ، والمعارض في المواسم السنوية المختلفة. ولما كانت كل مدينة تتألف إما من طوائف عمالية ، أو من طبقات اجتماعية ، فإنه لا ينبغي للأمير أن يغض بصره عن كل هذه الطوائف والفئات. ويجتمع معهم من وقت لآخر وأن يكون مثالا أمامهم لعظيم الكرم ، والإنسانية دون أن يقلل من مستوى إجلاله واحترامه وألا يسمح بذلك أبدا في أي وقت .

حول أمناء الامراء:

إن اختيار أمناء للأمير لا يعتبر أمرا قليل الأهمية، فالأمناء إما صالحون أو غير صالحين، وهذا يتوقف على حكمة وذكاء الأمير ويمكننا أن نقيم الحاكم وعقله حين نرى من يحيط به من رجال فإذا كانوا قادرين ومخلصين يمكننا دائما أن نعتبر أن الأمير من الحكماء، حيث استطاع أن يحدد قدرات أمنائه، وأن يحافظ على إخلاصهم له.

ولكن إذا كانوا غير ذلك يمكننا أن نكون رأيأ غير جيد عن الأمير لأنه قد أساء الاختيار وما من أحد تعرف على أنطونيو دافنافرو كوزير لباندولفو بتروتشي أمير سيينا إلا وأعتبره رجلا حكيما، وذلك لأن أمينه هو أنطونيو وللرجال ثلاثة عقول مختلفة : الأول يفهم الأمور دون أن يحتاج لمساعدة من أحد والثاني يفهمها حين يوضحها له غيره، والثالث لا يفهم الأمور بمفرده ولا حين يشرحها له أحدهم. والنوع الأول هو أكثر تميزا، والثاني ممتاز أيضا، أما الثالث فهو عديم المنفعة، ولذا فإن باندولفو إن لم يكن من النوع الأول، فإنه من النوع الثاني على أي حال. فالأمير دائما يستطيع الحكم على أعمال الآخرين سواء كانت خيرة أم شرا حتى وإن كان عقل الأمير غير جيد. كما أنه يستطيع التمييز بين الأعمال السيئة والأعمال الصالحة ويصحح الأولى، ويحض على الثانية وإذا كان الأمين لا يستطيع أن يأمل في خداع الأمير، لذلك فهو يظل صالحا .

وهناك صفة أخرى يمكن بها للأمير أن يعرف وزيره وهي طريقة صائبة دائما. فإذا وجت الوزير يفكر في نفسه أكثر مما يفكر فيك

وأنه يبحث عن مصلحته الشخصية في جميع أعماله ، فإنه لن يكون وزيرا صالحا، ولا يمكنك أن تعتمد عليه. فواجب من يمسك بزمام الأمور في ولاية غيره أن يفكر في الأمير فقط، ولا يفكر في نفسه أبداً. وألا يهتم بشيء سوى ما يخص الأمير. ومن ناحية أخرى ينبغي للأمير أن يصون وفاء أمينه له، فيفكر في أحواله ويكرمه ويغدق عليه ، ويرفع منزلته، ويسند إليه الأعمال الكبرى. ويستطيع الأمراء وأمناؤهم الاعتماد على بعضهم البعض حتى تستمر هذه العلاقة، أما إذا شاب العلاقة غير ذلك فالنتيجة هي المضرة دائما سواء لهذا أو لذاك .

كيف يمكن تجنب المتملقين ؟

__يجب ألا نغفل عن موضوع هام، وهو ذكر خطأ الأمير الذي لا يمكن تجنبه بصعوبة، إلا إذا كان على درجة عالية من الحكمة، أو لم يسئ الاختيار، وهو الموضع المتعلق بالمتملقين الذين يمتلئ بهم كل بلاط، فالناس يسعدون بما يخصهم، وينخدعون بالتملق، لدرجة أنهم لا يستطيعون تجنب هذا الطاعون إلا بصعوبة بالغة.

وهم يغامرون باحترامهم حين يودون مواجهته، ويصبحون مؤذرين. وليس هناك طريقة أخرى أمام المرء يقي بها نفسه شر التملق سوى أن يدع الناس يدركون أنه يحب أن يسمع منهم الحقيقة .لكنك تفقد احترامهم لك لو سمحت لكل منهم أن يخبرك بالحقيقة. ولذلك على الأمير أن يتبع طريقة ثالثة، وهي أن يختار من ينصحونه من حكماء الناس، ويمنحهم الحرية التامة كي يتحدثوا إليه عما يسألهم عنه من أمور فقط وليس عن أي شيء آخر. وعليه أن يسألهم عن كل شيء ، ويسمع رأيهم، ثم يتناول الأمر مع نفسه وعلى طريقته الخاصة، وأن يجتمع بنفسه مع مجالسهم، ومع كل منهم على انفراد ، حتى يستطيع كل منهم أن يدرك أنه كلما كان ذا رأي حر كان أكثر قبولا عند الأمير. ولا يجب على الأمير أن يستمع إلى غير هؤلاء الذين أعدهم لهذا الأمر، وأن يعمل بتأن ويفكر جيدا، وأن يكون حازما فيما يتخذه من قرارات. ومن يفعل غير ذلك إما أن يؤدي به التملق إلى التعجل، أو أنه لا يستقر على رأي أبدا، ونتيجة كل ذلك أنه يفقد اعتباره وهيبته.

وسوف أضرب مثالا حديثا فقد قال القسيس لوقا مندوب الإمبراطور الحالي عن جلالته وهو يتحدث عنه : إنه لم يستشر أحدا أبدا ، إلا أنه لم يفعل أي شيء بناء على رغبته وهذا يعني أن أتباعه يفعلون عكس ماتم ذكره، ولما كان الإمبراطور رجلا كتوما لا يحكي لأحد عن نياته، لم يستمع لأي نصيحة، وكان من حوله يعارضونه عندما يعرفون ما يريد حين ينفذه ويتكشف للجميع، فيخرج الإمبراطور قليلا عن هدفه . ومن هنا يكون ما يفعله اليوم لا يفعله غدا ولا يعرف أي أحد ما يريد أن يفعله الإمبراطور ولا ما يقصده وبالتالي لا يستطيع أحد الاعتماد على قراراته .

ولكل هذا يبغي للأمير أن يستشير دائما، عندما يكون هو فقط في حاجة للاستشارة وليس عندما يريد غيره. وينبغي أن يكون الأمير سائلا محنك، ومستمعة متأنية لما يسأل عنه، وأن يغضب ممن يحجم عن ذكر الحقيقة المجردة وكما هي تماما وهو يحدثه ويخطئ من يظن أن الأمير الحكيم حكيم بسبب طبيعته الشخصية فقط، لكن ذلك يرجع أيضا للمستشارين المحيطين به

والقاعدة الثابتة تقول : إن نصيحة المسداة إلى الأمير غير الحكيم لن تجدي، إلا إذا كان هذا الأمير غير الحكيم قد تخلى عن ذاته وسلم نفسه لرجل يسيطر عليه تماما في كل الأمور، وكان هذا الرجل ذا حكمة جيدة، وفي هذه الحالة سيكون حكمه صالح. لكن هذا الأمر لا يطول، لأن هذا الحاكم سيجرده من الولاية. وإذا أخذ الأمير غير الحكيم المشورة من عدد كبير من الناس، فإنه لن يستطيع التوفيق بين آرائهم المختلفة أو الاختيار منها لأنه غير حكيم، وسوف يفكرون جميعا في مصالحهم الخاصة، ويعجز هو عن تقويمهم وفهمهم .ولا يمكن أن يحدث غير ذلك لأن الناس يقولون لك الصدق إذا اضطروا لذلك. ولهذا يجب أن تكون النتيجة التي نصل إليها هي: تعود النصائح الحكيمة لأي ناصح كان إلى حكمة الأمير، ولا تعزى حكمة الأمير إلى ما يتلقاه من نصائح صالحة .

لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم ؟

إن مراعاة ما سبق أن ذكرناه من أمور بحكمة يجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم في الحكم، كما أنه يصبح فورا أكثر ثباتا في الولاية

وأكثر سلامة كما لو كان أميرة منذ سنوات عديدة .والناس يتابعون أعمال الأمير الجديد أكثر من متابعتهم لأعمال الأمير الذي ورث الإمارة، وحين تعتبر هذه الأعمال أعمالا فاضلة ، يرتبط به الناس ارتباط أوثق مما لو كان أميرة قديمة. لأن ما يحدث حاليا يجذب اهتمام الناس أكثر مما حدث في الماضي، وحين تكون حالتهم الراهنة جيدة يرضون بها ولا يبحثون عن غيرها .ولكن وعلى العكس من ذلك تماما، فهم سوف يبذلون كل ما في وسعهم للدفاع عن الأمير. وهكذا يتضاعف مجد الأمير: فقد أرسى عهدا جديدة وهذا مجد يحسب له، والمجد الآخر يتمثل في إقامته للولاية على القوانين الصالحة والأسلحة الجيدة والأصدقاء الصالحين والقدوة الصالحة. بينما يتضاعف عار الأمير الذي يولد أميرة ويفقد عرشه بسبب افتقاره إلى الحكمة .

وإذا تناولنا من فقدوا عروشهم في عصرنا بإمعان، مثل ملك نابولي ودوق ميلانو وغيرهما، فإننا سنجد نقصا في أسلحتهم بصفة عامة لأسباب سبق أن ناقشناها بالتفصيل، وأن بعضهم يعاديه شعبه. وإذا لم يكن الأمر كذلك فقد يكونون على غير ثقة من النبلاء.

فهذه هي الأسباب التي تضيع الولايات ذات الجيوش. إن فيليب المقدوني (وليس فيليب أبو الإسكندر الأكبر بل إنه هو من هزم على يد تيتوس كونتيوس لم يكن له دولة عظيمة يمكن مقارنتها بعظمة روما وبلاد الإغريق التي شنت عليه هجوما قوية، ولكنه كان رجل حرب يعرف كيف يحصل على مساندة الشعب، وكيف يأمن علية قومه، فاستطاع أن يستمر في الحرب ضد الأعداء سنوات طويلة. وإذا كان قد فقد سيطرته على بعض المدن في النهاية إلا أنه ظل قادرة على الاحتفاظ بالمملكة .

ولذلك على الأمراء الذين سيطروا على مملكاتهم لسنوات طويلة ألا يتهموا الحظ كسبب لفقدانهم لها، ومن الأجدر بهم أن يتهموا إهمالهم ، لأنهم لم يحسبوا حسابا للاضطرابات التي قد تحدث بعد الفترات الهادئة (شأنهم في ذلك شأن حافة البشر الذين لا يتوقعون العواصف عندما يكون الطقس معتدلا). وحين تتغير الأحوال فروا بدلا من الدفاع عن أنفسهم. وكانوا يأملون أن يستدعيهم الشعب حينما يستاء من غطرسة المعتدين. وهذه طريقة جيدة إن لم يكن أمامهم سواها.

ولكن من السيئ جدا إهمال الطرق الأخرى من أجل استخدام هذه الطريقة، فما من عاقل يرغب في السقوط وهو يعتقد أنه قد يجد من يأخذ بيده، وهو أمر قد يحدث وقد لا يحدث، وإذا حدث لك هذا الأمر فلا تكن مطمئنأ، لأنك لم تعتمد على نفسك، ولكن ساعدك الآخرون كما يساعدون الجبناء. إن طرق الدفاع الصالحة الوحيدة والأكيدة والدائمة هي تلك الطرق التي تعتمد عليك وحدك وعلى قدراتك وليس على الآخرين .

دور الحظ في العلاقات البشرية:

ا وكيف يمكن التصدي له؟ أعرف أن العديد من الكتاب يرى أن الحظ يسيطر على أحداث هذا العالم، وأن البشر ليس باستطاعته أن يغيرها أيا كانت، ولذلك فإن كثرة التعب في الحياة غير مفيدة، لنذر الصدفة تحكم الأمور وهذا الرأي يجد تأييدة كبيرة في أيامنا هذه بسبب ما يحدث من تغييرات كبيرة وأحداث إنسانية لكني حين أفكر فيها أميل أحيان

إلى الانضمام إلى هذا الرأي إلى حد ما لكن، وحتى لا نقضي على إرادتنا قضاء تاما، أرى أنه من الأصوب أن نعتبر أن الحظ يحكم نصف أعمالنا، ويترك لنا النصف الآخر تقريبا. وإني أشبه الحظ بالنهر الهائج القوي سريع التيار، الذي يفيض على السهول، ويقتلع الشجر ، ويهدم المباني، وينقل التربة من شاطئ لآخر، يفر الناس أمامه، ويستسلم الجميع الهياجه، ولا يقوون على الوقوف أمامه. ومع ذلك ورغم طبيعته هذه فإن الناس يظلون قادرين على مواجهته والاحتراس منه، فهم يبنون السدود والجسور حين يكون هادئا، فإذا ما هاج يجري في قناة أو تقل خطورته واندفاعه. وبالمثل نجد أن الحظ تظهر قوته فقط إذا لم تكن هناك تدابير متخذة ضده. فيوجه نفسه إلى حيث لا توجد تدابير ضده أو موانع تعوقه. وإذا ما نظرنا إلى إيطاليا التي كانت مسرحا لهذه التغيرات، وكانت سببا فيها، فسنجدها بلدا بلا أي حواجز أو جسور من أي نوع. ولو أنها محمية بطريقة صحيحة مثل ألمانيا وأسبانيا وفرنسا، لما استطاع فيضان أن يؤثر فيها بشدة هكذا، وربما لم يكن اليحدث أصلا.

وهذا كاف للتصدي للحظ بصفة عامة. ولكني حين أقتصر على حالات خاصة فإني أشير إلى مثال يحدث وهو أن المرء قد يرى أميرا يأتيه الحظ اليوم، ثم يحطمه غدا، والأمير على حاله لم تتغير أخلاقه أو غيرها. وأول أسباب ذلك هو أن الأمير الذي يعتمد تماما على الحظ يهلك إذا تغير حظه. وأعتقد أيضا أن السعيد هو من تتفق أعماله مع متطلبات العصر، وفي المقابل فإن التعيس هو من لا تساير أعماله عصره .وذلك لأن المرء يرى الرجال من خلال ما يفعلونه من أجل تحقيق أغراضهم، وبطرق مختلفة. فهذا يصل بالحذر، وذلك يصل بالتسرع، وآخر بالعنف، أو بالمكر أو بالصبر، وآخرون يستخدمون عكس هذه الصفات. وكل منهم قد يحقق هدفه رغم اختلاف مناهجهم تماما. وقد نرى رجلين حذرين ينجح أحدهما في الوصول إلى ما يريد، ويفشل الآخر، ورجلين آخرين يحققان نفس القدر من النجاح رغم اختلاف طريقتيهما، فهذا مندفع وذاك حذر .والسر في هذا التباين يرجع إلى طبيعة العصر واتفاقها مع ما يقومون به من أعمال أم لا. وعلى هذا الأمر تتوقف أيضا التغيرات التي تحدث في مدى الرفاهية.

فإذا كان الزمان والظروف المعاصرة ملائمين لمن يعمل بحذر فإنه سينجح، ولكن إذا تغير الزمان والظروف، فإنه يسهلك لأنه لم يغير من طريقة تناوله للأمور. ولا يوجد هناك حكيم يستطيع التكيف مع كل الأحوال أيا كانت. وذلك إما لفشله في التكيف مع ما لا تمكنه منه طبيعته، أو لأنه ينجح فقط إذا اتبع طريقة واحدة ثابتة | .

وقد كانت كل أعمال البابا جوليوس متسرعة، وكان الوقت والأحوال المحيطة ملائمين، فكان دائما ما يصل إلى نتيجة طيبة .فإذا نظرنا إلى أول حرب قام بها ضد بولونيا وذلك أثناء حياة جيوفاني بنتينوجلي وهي لم تلق ترحيبا لا من البنادقة ولا من ملك أسبانيا ، كما أن فرنسا قد أجرت معه حوار بشأن الحملة. ومع ذلك قام بالإعداد للحملة بنفسه لما لديه من استعدادات جيدة وما يتصف به من تعجل. ولذلك توقفت أسبانيا والبنادقة وترددوا. وكان دافع البنادقة في ذلك هو الخوف بينما كانت أسبانيا ترغب في استعادة جميع مملكة نابولي، لكنه أشرك معه ملك فرنسا الذي لاحظ إقدامه فرغب في مصادقته ليكسر شوكة البنادقة، وأدرك في نفس الوقت أن البابا لن يرفض مساعدته له بقواته

لأن في ذلك إهانة شديدة. وهكذا تمكن جوليوس الثاني بتعجله ما لم يكن باستطاعة أي بابا آخر أن ينجزه مهما أوتي من حكمة. لأنه لو انتظر حتى تتم كل الترتيبات ويعد كل شيء قبل أن يغادر روما لما نجح أبدا .حيث إنه من المحتمل أن يجد ملك فرنسا ألف عذر، وأن يوحي إليه الآخرون بألف من المخاوف. وإني أكتفي بعمله هذا دون بقية أعماله الأخرى ، وجميعها من هذا النوع، وكلها نجح نجاحا كبيرة. فهو لم يجرب الفشل وحياته كانت قصيرة .وربما كان قد هلك لو أنه واجه ظروفا كان من الضروري له فيها أن يعمل بحذر وتأن .

والخلاصة هي أنه : إن تغير الحظ وبقي البشر على طريقتهم الثابتة فإنهم يحققون نجاحا طالما تلاءمت هذه الطرق مع الظروف المحيطة بهم .لكن عندما تتعارض الطرق مع الظروف فإنهم لا يحققون نجاح. وأني أرى أن الإقدام أفضل من الحذر، فالحظ امرأة لن تفر بها إلا بالقوة. ومن الممكن أن نلاحظ أن الحظ يستسلم للشجاع أكثر من أولئك الذين يعلمون. ولهذا فالحظ كالمرأة يصادق الشباب ، لأنهم أكثر عنفا ، ولذلك فهم يسيطرون بجرأة تفوق جرأة الآخرين

دعوة إلى تحرير إيطاليا من البرابرة:

والآن فإني قد تناولت كل الأمور التي تحدثت عنها وتأملتها في داخلي، وقلت في نفسي هل الوقت الحاضر ملائم لظهور أمير جديد في إيطاليا، وإن كانت الأوضاع غير مناسبة لذلك، لكني أرى أن الأحوال تتلاقى وتتشابك حتى يستفيد منها حاكم جديد يقوم بهذا العمل المجيد .ولا أجد أن هناك وقتا أنسب من الوقت الحاضر. وإذا كان من الضروري أن يكون بنو إسرائيل عبيداً في مصر حتى تظهر لنا قدرات موسى عليه السلام . إذن لابد أيضا لإيطاليا أن تصل إلى وضع أحط من عبودية بني إسرائيل، وأن يبطش بها أكثر مما حدث مع الفرس، وأن يتفرق شملها وتصبح بلا حاكم وبلا نظام ومهزومة ومنهوبة وممزقة الأشلاء ومغلوبة على أمرها بعدما مرت بكل أنواع الدمار .

إلا أن هناك بارقة أمل في فرد محدد قد يهيئه الله لخلاص البلاد، إلا أن حظه قد تعثر وهو في قمة مهمته، وأصبحت إيطاليا الآن بعد أن فارقت الحياة في انتظار من يضمد جراحها ويضع حدا لما يحدث في المبارديا وللسلب والنهب في مملكة نابولي وتوسكانيا

ويبرئ أيطاليا من هذه الجروح المتقيحة. إن إيطاليا تتضرع إلى الله كي يرسل إليها من يخلصها من قسوة البرابرة وإهاناتهم .كما أنها مستعدة للعمل تحت لواء يرفعه أي إنسان. ولا أمل لإيطاليا الآن إلا أن يتزعم مقامكم العالي هذا التحرير، فهو عال بنفوذه وطالعه السعيد، ويناصره الله والكنيسة التي يستمد منها سلطانه. وهذا الأمر لن يكون شاق لو وضعت نصب عينيك ما ذكرته من أعمال الرجال وقصص حياتهم، وإن كان هؤلاء الرجال فرادى وقلة نادرة، إلا أنهم بشر مثلنا على أي حال، والفرصة التي أتيحت لكل منهم كانت أقل من الفرصة الحالية، فأعمالهم لم تكن أكثر عدة من هذا العمل العظيم أو أشد سهولة منه، كما أن الله في عونك لأن قضيتك عادلة. إضافة إلى أن هناك معجزات كثيرة قد حدثت من قبل في مثل هذه القضايا التي تدافع عن العدل مثل انشقاق البحر ، والغمامة ، وتفجر الماء من الصخر ، ونزول المن من السماء. والآن تكاتفت كل الظرف لإعلائك ، وما عليك إلا أن تكمل ما تبقى، فالله سبحانه وتعالى لا يفعل لنا كل ما نريد حتى تصبح لدينا إرادة حرة وننجزه وبذلك ننال نصيبنا من المجد.

وليس من العجيب أن أحدا ممن ذكرت من الإيطاليين لم يقم بما نأمل أن يفعله مقامك العالي. وإذا كانت القدرات العسكرية قد قضي عليها تماما في ثورات إيطالية كبيرة جدا، وفي العمليات العسكرية الكبيرة، فإن سبب ذلك هو الأساليب القديمة غير الصالحة ، ولا شئ يحقق للرجال المجد الكبير سوى سن القوانين الجديدة، هي أمور تجعله موضع إعجاب واحترام. ويوجد في إيطاليا ما يسمح بإدخال نظم جديدة. ولننظر كيف أن فئة من الإيطاليين قد تفوقت في القتال الفردي والمبارزات، إلا أن جيوشها كانت ضعيفة، والسبب يعود بالكامل إلى ضعف القادة، فلم يظهر من بينهم حتى الآن من يجعل الآخرين يطيعونه دون تذمر. ولذلك كان الفشل هو حليف الجيوش الإيطالية

لفترة طويلة من الزمن، وفي كل الحروب التي قامت خلال العشرين عاما الأخيرة وهذا واضح في كل من تارو وكابوا وجنوا و فايلا وبولونيا ومستريولهذا إذا أراد سموكم أن يقتفي آثار العظماء من القادة الذين حرروا أوطانهم، فلابد لك أولا أن تعد نفسك بالأساس الصحيح لما ستقوم به، وهو قوات الوطنية.

فلن تجد جنودا يخلصون لك أكثر منهم ، ولن تجد أفضل منهم وإذا كانت الجيوش جميعا جيدة وهي فرادى ، فإنها ستكون أجود إذا اتحدت تحت قيادة أمير يكرمها وتنال رضاه ولهذا فمن الضروري أن تكون هذه القوات التي تدافع عن الوطن من الإيطاليين. وعلى الرغم من أن المشاة السويسريين والأسبان أقوياء جدة إلا أن لكل منهما عيوبها، ويمكننا أن نتصدى لهما بتنظيم عسكري مختلف، ولا بد من أن نكون على يقين من النصر عليهما ، فالأسبان لا يستطيعون الصمود أمام هجوم الفرسان، والسويسريين لابد أن يخافوا ملاقاة مشاة أقوياء مثلهم. وأمامنا أمثلة كثيرة منها موقعة رافنا حيث هاجم مشاة الأسبان على الكتائب الألمانية المنظمة بنفس طريقة تنظيم السويسريين. إلا أن الأسبان بخفتهم، وباستخدام ما لديهم من تروس قد تمكنوا من اختراق الصفوف، وأن يحصنوا أنفسهم في مواقع يهاجمون منها هجوما موفقاً، ولولا إغارة الفرسان عليهم لتمكنوا من القضاء على الجميع بالكامل. وإذا عرفنا عيوب هذين النوعين من المشاة فإننا سنتمكن من تشكيل نوع ثالث قادر على مقاومة الفرسان، ولايخشى المشاة

وهذا يتم باختيار الأسلحة والتنظيم الجديد وهي الأمور التي تمنح الأمير الجديد سمعة طيبة ينال بها العظمة حين يطبقها لأول مرة .

ولهذا لا يجب أن تفوت هذه الفرصة دون اقتناص ، حتى تجد إيطاليا من يحررها أخيرة وأنا لا أستطيع أن أعبر عن الحب الذي سيقابل به من يجرر كل هذه الولايات التي ذاقت الأمرين بسبب الغزو الأجنبي، وعن المتعطشين للثأر وما سيلاقية المحرر من ولاء ثابت، وعقيدة قوية، ودموع الشكر والعرفان بالجميل فأي باب يمكن أن يغلق في وجه هذا المحرر؟ ومن ذا الذي يرفض أن يطيعه؟ وأين الإيطالي الذي لا يقبل يسانده ؟ أن رائحة السيطرة الأجنبية تزكم كل الأنوف، فهل لمقامكم العالي أن يؤدي هذا الواجب بشجاعة وأمل كبير في هذه القضية العادلة،حتى ينهض وطن آباءنا وأجدادنا تحت راية الوطن ويصدق في ذلك الحين تماما قول الشاعر بترارك : استثار الغضب حمية الأبطال فحملوا السلاح وسعوا للنزال جمعت أرض الأجداد أيادي الرجال فبلادنا نابضة ولن نكف عن القتال.